د. محمد الجوادى

الفلسطينيون ينتصرون أخيراً

دراسة فى التنبؤ السياسى

الناشر
دار جهاد للنشر والتوزيع
٢٠٠٣

الكتاب : الفلسطينيون ينتصرون أخيراً
المؤلف : د. محمد الجوادى
إشراف : محمد نوار
إخراج فنى : زينب طيبى
الطبعة : الأولي ٢٠٠٢
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٧٣٣
الترقيم الدولى : ISBN - 8 - 65 - 5684 - 977
الناشر : دار جهاد للنشر والتوزيع
٢٦ ش إسماعيل أباظة ،محطة مترو انفاق سعد زغلول، لاظوغلى
☎: ٧٩٦٤٧٨٣

الفلسطينيون ينتصرون أخيراً

دراسة في التنبؤ السياسي

إهداء

إلى الأستاذ الكبير مصطفى عوضين حجازى

المجمعى العريق، والمحقق العظيم، والإنسان الفاضل

د.محمد الجوادى

مقدمة

يقدم المؤلف من خلال هذا الكتاب أفكاره وتصوراته لمسار الصراع العربى - الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهى تصورات مختلفة عن الأفكار والآراء الشائعة، وهو يعتمد فى صياغة هذه الآراء على تحليل الحقائق المتاحة من خلال نظرة إنسانية أرحب تضع فى حسبانها عوامل التاريخ الطبيعى الحاكمة للصراعات البشرية، وينتصر المؤلف لفكرة أن القوة ليست هى العامل الوحيد القادر على حسم الصراع الإنسانى، وأن هناك كثيرا من العوامل الأخرى التى تحكمها طبائع الأشياء، ويجاهر المؤلف فى هذا الكتاب بكثير من آرائه التى تبدو متفردة، لكنه يقدم براهينه على صحتها، ومن هذه الآراء أن استفادة أمريكا من إسرائيل تفوق استفادة إسرائيل من أمريكا، وأن خليفة الرئيس عرفات لن يكون أكثر حظا منه، وأن اجتياح غزة سيكون المخرج الاحتياطى لشارون عندما تضيق به السبل ويكتشف فشل سياسته.

كما يدعو المؤلف من خلال الكتاب إلى تبنى مجموعة من الأفكار الجريئة فى التعامل الودود مع عرب ١٩٤٨، وضرورة إكثار المسلمين من زيارة المسجد الأقصى لتذكير العالم أجمع بارتباطهم به، والعمل على إبراز زعامة فلسطينية للعرب المقيمين تحت حكم الاحتلال. بل إنه يدعو إلى ضرورة التفكير الجدى فى العمل على إعادة اليهود والعرب الذين هاجروا إلى إسرائيل إلى مواطنهم الأصلية فى البلدان العربية لإجهاض مبررات وجود إسرائيل وتوسعاتها.

الكتاب فى مجمله يمثل رؤية رحبة ومشرقة لقضايا تبدو مظلمة وبلا نهاية.

والله سبحانه وتعالى نسأل أن ينفع به، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.



1

الفلسطينيون ينتصرون أخيراً..ولكن



من أهم ما نتعلمه ونعلمه فى الطب القدرة على التنبؤ بمآل الحالات المرضية التى نقابلها، ذلك أن هذا التنبؤ يمثل بلورة رفعية للخبرة وللعلم معاً، وعلى سبيل المثال فللالتهاب أو للإحمرار أو لغيرهما من المظاهر المرضية أمد يمكن تقصيره إذا ما استعملت مضادات حيوية مناسبة، كما أن القرحة تمضى فى مراحل متعاقبة تتوالى وراء بعضها إلا إذا أجهضنا هذا التوالى بعلاج من العلاجات الناجحة، كذلك فإن بوسعنا أن نتنبأ بكثير من تطورات إصابات صمامات القلب وشرايينه فى ظل الظروف المختلفة التى يمكن تقدير أثرها على الحالة المرضية، ومع كل هذه القدرة فإن هامشا من التفاوت أو التباين يظلل أحكامنا فى الغالب، وهو أمر طبيعى يعود فى المقام الأول إلى أن الحياة حياة، وليست كيمياء أو فيزياء أو رياضة، كما يعود إلى اختلاف قدراتنا وخبراتنا.

والسياسة والتاريخ نمطان من أنماط علوم الحياة أو العلوم الإنسانية شأنهما فى ذلك شأن الصحة والطب وهما يخضعان لعوامل كثيرة غير قابلة للقياس الدقيق أو التحديد المنضبط، ومع هذا يتمثل التطور فى علوم السياسة من سعة أفق العلم الحديث، وبالتالى من سعة أفق العقل والمنطق والحسابات فى صياغة رؤى أقرب ما تكون إلى

الوصف بأنها صائبة وذلك تجاه المواقف التى تبدو شائكة من حيث كونها حافلة بالاحتمالات والاجتهادات والتداخلات والمفاجآت.. لكن كل هذا لحسن الحظ يمكن حسابه بالتقريب حتى مع استحالة حسابه بالتحديد، كما يمكن فهمه على سبيل الإجمال، وإن صعب أو استحال فهمه على مستوى التفاصيل.

من هذا المنطلق كان من حسن حظى أن أتناول مشكلات الحياة السياسية برؤية متجردة عن تغليب المشاعر على الأحكام العقلية وذلك فى محاولة للوصول إلى تشخصيات أكثر دقة فى الوصف، ومن ثم إلى تنبؤات أكثر قربا من الحقيقة، ومن ثم إلى إدراك مكانة الحدث من التاريخ الطبيعى للحالة على نحو ما نقول فى الطب.

وفى هذا الصدد أحب أن أقرب هذا الموقف للقراء بأن أذكر أن طبيبا كان يحادث شقيقته الصغرى (وكانت هى الأخرى طبيبة) عن أن والدتهما مصابة بهبوط القلب ، فإذا بشقيقته تستنكر عليه مثل هذا القول وذلك بعد أن استحضرت فى ذهنها صورة المريضات اللائى كن يعانين من هبوط القلب من بين مريضات المستشفى الذى قضت فيه زميلتنا ـ المتخصصة الآن فى طب العيون ـ عام الأمتياز، وإذا الأخ الشقيق فى هدوء يقول لها: وهل هذا عيب يجدر بنا أن ننكره؟.. قالت وهى تبكى ، ولكنى لا أتصورها كذلك ، ولا أحب لها أن تكون كذلك ، قال الشقيق: إذاً فعلينا أن نعالج هذا المرض حتى ننفى وجوده لا أن نكتفى بإنكار وجوده..

❑

وظنى أن هذا هو جوهر ما هو مطلوب منا فى تعاملنا مع القضية الفلسطينية... لابد أن ننتبه إلى الحقيقة الكبرى فى هذه القضية وهى أنها وصلت إلى مرحلة «المخاض» السابقة مباشرة على «ميلاد الحل»، ولابد أن ندرك بكل وضوح أن الألام المروعة التى يعانيها الفلسطينيون الآن هى آلام المخاض، وهى آلام لابد منها كى يولد الحل سواء أكانت الولادة طبيعية أم قيصرية.

وظنى أن حقيقة «أن الفلسطينيين سينتصرون أخيرا» قد أصبحت واضحة وضوح الشمس، وما العنت الإسرائيلى إلا آخر محاولة فى سبيل القضاء على أمانى الفلسطينيين المشروعة التى قاربت التحقيق وستتحقق بإذن الله مع قدر لا يستهان به من التضحيات التى لابد منها كى يسمع مَنْ بأذنه وقر ، وكى يرى مَنْ ببصره قذى ، وكى يدرك الحقائق كل منْ استنام إلى تصوير خاطىء لحقائق التاريخ والصراع.

لكن طبائع الأشياء «وكثيرا ما أكرر وما سأكرر هذه الكلمة»، طبائع الأشياء تأبى وقد أبت بالفعل أن يبقى الفلسطينيون مظلومين فى ظل آلة إعلامية جبارة كشفت الحقائق للناس يوما بعد يوم، وطبائع الأشياء تأبى أن تنتصر آراء زائفة ومضللة على الحقيقة مهما طال بالحقيقة أمد إخفائها ، والتدليس عليها.

والعالم كله يعلم اليوم - إلا قليلاً هم بسبيلهم إلى العلم والإدراك - حقيقة هذا الظلم البين الذى تعرض له هذا الشعب على مدى أكثر من نصف قرن، والدعاوى الفاجرة تتساقط واحدة بعد أخرى، وتستوى فى هذا دعاوى المحتل الغاصب، ودعاوى الذين خدعوا الفلسطينيين بالمزايدة عليهم.

كذلك فان أزمة اللاجئين تجد طريقها إلى الصدارة، وحق العودة ترتفع رايته، وحق الكفاح يجد يوما بعد يوم منْ يقدره ويقدر قيمته، بل إن الأخطاء الكبيرة تجد من يتفهم دوافعها فيما مضى من الزمان ، وتجد مَنْ يحذر من استمرار وجود هذه الدوافع، وقدرة هذه الدوافع على توليد أخطاء كثيرة جديدة.

ومهما حاولت القوة الكبرى أن تغطى على الاهتمام بقضية فلسطين بقضايا أخرى كالعراق أو غير العراق فإن شعبا عظيماً هو الشعب الفلسطينى لن يتوارى بقضيته ، ولن يقبل لها بالتوارى بعد أن أصبحت بالفعل ملء السمع والبصر.

❑

«الفلسطينيون ينتصرون أخيرا» لأن هذه هى طبيعة الأشياء بعد كل النجاح المحدود (زمانا وكما) الذى حققه الإسرائيليون على مدى ستين عاما فإذا هم بإنتهاء

الجيل المؤسس يواجهون حقيقة مرة وهى أنهم قبلوا الاستنزاف والاستهلاك الدائم من أجل الانتصار لمصالح الآخرين قبل أن ينتصروا لبعض عقائدهم ، وإذا هؤلاء الصهاينة يحاربون أمة كبيرة على مستويات متعددة وفى آفاق متعددة كى ينعم آخرون بنتائج الصراع الذى هم بعض وقوده، وإذا هم يقبلون أن يضموا إلى مجتمع اليهود [فى إسرائيل] مَنْ يشكك بعض اليهود فى يهوديتهم ، وإذا هم يعانون من تفاقم الصراع بين الطوائف وبين العرقيات المتعددة التى حشرت حشراً على أرض فلسطين، بينما يخوض الفلسطينيون فى الداخل والخارج أنبل تجارب الحياة الإنسانية ويصقلون شخصياتهم ويغذون أبناءهم بالوطنية والحماسة والإيمان ، وإذا الصهاينة الذين فرضوا الظلم يستشعرون الآن مدى ما ينتظرهم من جحيم ناشىء عن إيمان أصحاب الأرض والحق بقضيتهم.

«الفلسطينيون ينتصرون أخيراً»، ولكن لابد لنا من مساعدة أنفسنا على تقبل انتصار الفلسطينيين ، وأن نفهم الأخطاء التى وقع فيها العرب والمسلمون بحسن نية أحياناً ، وبقلة فى الخبرة أحياناً أخرى ، وبضعف فى الفهم أحياناً ثالثة، ولابد لنا أن نعالج الأخطاء السابقة جميعاً.

لابد أن لنا أن نرفع أيدينا عن فرض الوصاية على فصيل فلسطينى هنا أو هناك أو هنالك، ولابد لنا أن نساعد الفصائل المختلفة على الاتفاق من أجل مصلحة فلسطين، ولابد أن ننكر ذواتنا فى كل مساعدة تقدمها أى دولة عربية (أو اسلامية) أو جماعة عربية (أو إسلامية) للفلسطينيين ، ولابد أن نعترف بالأخطاء العديدة التى ارتكبناها فى الماضى.

ولابد على سبيل المثال أن ندرك مدى قصور الرؤية التى فرضناها فى تصويرنا لإخواننا من عرب ١٩٤٨ ، ولابد أن نعوض كل هؤلاء بكل وسيلة ممكنة عن خطأنا الرهيب فى حقهم حين اعتبرناهم اسرائيليين ، وكانت حماقتنا تصور لنا أنه لابد لكل

هؤلاء أن يتركوا أرضهم وأرض آبائهم وأرض أجدادهم حتى يكونوا فلسطينيين حقا!!، وكأنه كتب على الفلسطينيين التشرد وإلا فقدوا أهليتهم وهويتهم وماهيتهم!!

وهذا هو نموذج بارز لخطأ من الأخطاء التى لابد لنا أن نكفر عنها بأقصى سرعة، وأرجو ألا نخطىء فى طريقة تكفيرنا عن مثل هذه الأخطاء فنطلب من هؤلاء، على سبيل المثال، ما ليس من طبائع الأشياء ونضعهم فى حرج جديد بدلاً من الحرج الذى وضعناهم فيه من قبل ، إنما ينبغى لنا أن نلبى لهم ما يطلبون منا لا أن نفرض عليهم رؤية ما أياً ما كانت هذه الرؤية.

وعقيدتى أنه لابد لنا أن نكرم هؤلاء بكل صورة وأن نعتز بهم وبزعامتهم التى نجحت فى الوصول إلى مقاعد الكنيست الإسرائيلى.

❑

«الفلسطينيون ينتصرون أخيرا»، ولكن لابد لنا أن نكون أذكياء فى تعاملنا مع المعطيات المتاحة فى جانبنا من أجل أن نصل إلى أهدافنا فى أقصى سرعة ممكنة وبأقل الأضرار.

إن السياسة هى فن الممكن ، والاستراتيجية هى الإفادة بالعقل مما فى اليد لتحقيق ما فى القلب، ولابد لنا أن نستلهم من تاريخنا الحى المواقف التى تجعلنا قادرين على استيعاب اليهود العرب (بل غير العرب أيضاً) فى ظل حضارة إسلامية أو حضارة عربية على نحو ما حدث على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان.

إن حجم الكتلة الإسلامية كفيل بأن يستوعب اليهود استيعابا أكثر كرامة لهؤلاء من الاستيعاب الأمريكى الحالى الذى لا يقوم على الاستغلال المتبادل، وسوء النية والترصد من الجانبين.

إن قيم الإسلام الحقيقية كفيلة بأن تضىء طرقاً كثيرة للتعامل الذكى مع كل

نزعات التميز والتحيز والانعزال والعنصرية.. ولكن كل هذا لا يأتى إلا من موقف ذكى قادر على الإقناع بالتفوق والقدرة على الاستيعاب.

❑

«الفلسطينيون ينتصرون أخيرا» ويدلنا على هذا تأمل تجربة مصر السبعينات الناجحة فى الحرب والسلام وهى تجربة حية وكفيلة بإضاءة الطريق أمام كل الذين لا يزالون يتخوفون بلا مبرر من أن يقعوا ضحية بينما سكونهم وانصرافهم عن العمل هو الكفيل بوقوعهم ضحايا بينما الحركة الدائبة حربا وسلاماً هى الكفيلة باستخلاص الحقوق ، واستعادة المقدسات والسيطرة على المواقف.

إن الصراع الحضارى لا يعرف حدوداً للقدرة الذكية على التركيز فى مجريات الأحداث بكل ما تحتمله الأسلحة المتاحة فى يد كل طرف، ولا تنحصر هذه الأسلحة فى العتاد العسكرى أو الحرب، ولكنها تمتد لتشمل كل مناحى الحياة على نحو يستحيل معه أن تسيطر قوة «مفردة» مهما كانت قادرة على مجريات الأمور، إن أقوى وأغنى المنتجين أصبحوا الآن بحاجة إلى أضعف المستهلكين ، كما أن أعظم الأطباء لا يصل إلى هذه العظمة إلا من خلال علاج حالات أتعس المرضى.. كذلك فإن العلاقات الدولية اليوم بدأت تكرس إيمانها بقيمة وخطورة العدو «الواحد» فى مقابل الصداقات «الألف»، فعدو واحد كفيل بأن ينتقص على حين فجأة من سطوة فائقة دون أن تكون للصداقات الأخرى قدرة على أن تجهض هذا الانقضاض ولا على أن تحتوى أثره.

«الفلسطينيون ينتصرون أخيرا» وعلى جميع الأصعدة فقد أدى الفلسطينيون أدواراً متعددة كان بعضها فائق الجودة ، وكان بعضها إلهاما ، وكان بعضها إعجازا بشريا ، وكان بعضها سموا ملائكياً وإن لم يمنع هذا من أن نعترف بأن بعضها انحدر إلى مستويات دنيا من الإدراك والفهم.. ولكن المحصلة النهائية تصب فى مصلحة

الفلسطينين والقضية الفلسطينية وهى تقول بكل وضوح «إن الفلسطينين ينتصرون أخيراً».

- الدولة الفلسطينية أصبحت على الأبواب مهما حاول مغروضون وموتورون تأخير قيامها
- والهوية الفلسطينية أصبحت حقيقة واقعة
- والوجود الفلسطينية أصبح مؤثراً إلى حد بعيد
- والكيان الفلسطينى أصبح واضح المعالم قابلاً للعودة إلى الحقوق الأصلية ولعودة هذه الحقوق.
- والزعامات الفلسطينية أصبحت متعددة ومتكاملة وقادرة على تفهم دور وموقف الزملاء.
- والأحزاب الفلسطينية أصبحت واضحة التوجه والتميز وليست تكراراً ولا شيئاً فرديا
- والمعارضة الفلسطينية أصبحت صوتا قويا يدل على أن هناك حكومة فلسطينية قوية فى الجانب الآخر
- والاتصالات الفلسطينية فى الداخل وفى الخارج دائبة ومتعددة ومنجزة
- والتأثير الفلسطينى يُخطب وده هنا وهناك وهنالك

ولم يعد باقيا إلا استثمار كل هذا النجاح إلى الحد القادر على أن يجعل من فلسطين قوة عربية لا يستهان بها فى الحرب أو فى السلام، وهو ما سيحدث بإذن الله.

د. محمد الجوادى



2

مــــن الـــهـــــزائـــم
إلى
الانتـــصـــار الفلسطينى

- ❑ تقريب ما حدث فى فلسطين إلى الأذهان
- ❑ أول انتصار حقيقى
- ❑ الفلسطينيون يكرسون نجاحاتهم



بدأت الألفـيـة الثـالثـة بأن فـرضت أسوأ الظروف على الشـعب الفلسطينى، وهى ظروف استثنائية فى كل شىء، ولم يقدر لشعب أن يواجهها على هذا النحو الشجاع الباسل الذى حاول به الفلسطينيون التصدى لآلة عسكرية وإرهابية جبارة، مضيفين بذلك إلى رصيد هائل من الصمود والاستبسال على مدى الثلاثين الأخيرين من القرن العشرين منذ بدأت فى ١٩٣٦ ،الخطوات التنفيذية الرامية، إلى تمكين الإسرائيليين من ،وضع ما، على أرض فلسطين.. وعلى مدى هذه السنوات تحول ،هذا الوضع ما، إلى ،وضع ما آخر، حتى وصلت الأمور إلى أحرج مواقفها.

وعلى الرغم من هذا فإن إيجابيات المواقف الفلسطينية الداخلية آخذة فى التصاعد، ويكفى أن حركتى حماس والجهاد قد استجابتا أكثر من مرة لنداء السلطة الفلسطينية.. ويكفى أيضاً أن أحداً لا يزايد على ياسر عرفات على الرغم من دقة موقفه.. ويكفى ثالثا أن الفلسطينيين وأنصارهم فى كل مكان أصبحوا يواجهون الواقع بشجاعة حقيقية

وبكل جزئياته، ولا يقفزون عليه ولا يتجاهلونه، ولا يهونون من قدر قوة العدو أو منطقه.

ومع هذا ففى وسع الإنسان أن يتأمل القضية الفلسطينية من منظور الجيلين المتعاقبين، فالفترة (١٩٣٦ ـ ٢٠٠٢) هى ٦٦ عاماً تكفى لأن يخرج على التقاعد موظف كبير لم يكن قد بدأ حياته بعد، سواء كان هذا الموظف دبلوماسيا أم عسكريا أم صحفيا من المشتغلين بالسياسة.

❑

قضية العرب الأساسية فى القرن العشرين كانت «فلسطين»، ويبدو أنها ستظل بمثابة القضية الأساسية فى القرن الحادى والعشرين.

مع الإيمان بأن القضية نشأت نتيجة لتصرفات مشبوهة من الاستعمار البريطانى، ثم لتصرفات أكثر شبهة من الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن الحقيقة التى لا ينبغى أن تغيب عن أذهاننا هى أن جهل العرب (بالمعنى العام للجهل) كان بمثابة العامل الأكثر خطورة الذى أدى إلى تفاقم القضية على نحو ما أصبحت عليه، وإلى مضاعفة الخسائر الناشئة عنها، وإلى تعقد القضية نفسها بحيث أصبحت متعددة الأطراف.

تمثل جهل العرب فى محاور متعددة، منها عدم إدراك قواعد إدارة الصراع الدولى بحيث غابوا ـ على سبيل المثال ـ عن كثير من التجمعات واللقاءات الدولية التى كان من الممكن لهم أن يثيروا أمامها قضيتهم. وعلى حين كان المصريون قد تمكنوا بفضل ثورة ١٩١٩ (وماتلاها) من أن يصلوا إلى موقف الند القانونى لبريطانيا العظمى على نحو ما حدث فى معاهدة ١٩٣٦، أو فى المفاوضات المتعددة التى سبقتها (فى ١٩٣٠ على سبيل المثال)، فإن الفلسطينيين للأسف الشديد كانوا لايزالون ضحايا نوعين من التشرذم: التشرذم الداخلى حيث لم يجدوا الزعامة التى تجمعهم بقوة وعزم على نحو ما فعل سعد باشا زغلول فى مصر، والتشرذم الخارجى حيث كانت هناك أكثر من

دولة عربية تعتقد فى أحقيتها أو فى أفضليتها من حيث المسئولية عن فلسطين وشعب فلسطين.

الرأى السياسى العام الذى كان موجوداً فى مصر لم يكن موجوداً فى فلسطين بنفس القوة.. ونحن نرى الزعماء الفلسطينيين السياسيين ينقسمون على أنفسهم (فى ١٩٣٦) فيما يتعلق بفكرة القبول بمجلس تشريعى يطرحه البريطانيون عليهم.. لكن أحداً من الزعماء السياسيين لا يستطيع أن يفرض رأيه، سواء بالأغلبية أم بزعامة الشعب (كالنحاس باشا)، أم بالدكتاتورية وحزب أقلية (كإسماعيل صدقى ومحمد محمود)، أم بالاستناد إلى القصر وحزب صناعى (كأحمد زيور باشا).. بل ربما ندرك من قراءة صحافة ١٩٣٦ مدى جدوى وجود «قصر» أو «سراى» فى مصر فى ذلك الوقت، فقد ساعد هذا الكيان (المكروه أو المتحفظ عليه على أدنى تقدير) على أن تكون هناك مقومات واضحة المعالم لدولة لم يكن من السهل على «الصهاينة» أن يتصوروا أن فى إمكانهم أن يحققوا فيها بعض ما حققوه فى فلسطين المنكوبة.

الطرح الصحفى (فى الثلاثينيات) عن الشعب الفلسطينى كان يصوره على أنه مجموعة من الثوار ذات أهداف متناثرة تهاجم الجنود هنا وهناك.. الجنود هم جنود المستعمر البريطانى الذى لم يكن قد رفع يده بعد عن أرض فلسطين.. حتى نتذكر التاريخ بحقائقه فقد رفع هذا الاستعمار الخبيث يده عن فلسطين صباح يوم من الأيام (كان محدداً من قبل ومعروفاً) ،ودخلتها العصابات اليهودية بتشكيل شبه رسمى كأنه تشكيل «الدولة» فى اليوم التالى.. وطبعا هذا لا يتحقق فى الواقع إلا بين لصوص محترفين يخلى أحدهم مسئوليته عن المسروق لسارق آخر!!

وهذا هو جوهر ما حدث فى مايو ١٩٤٨.

❑

وفى كل الأحوال فقد كانت أنشطة الثوار محدودة التأثير، حتى وإن كانت متعددة المواقع هنا وهناك.. ولكنها فى النهاية لم تكن لتكفل الأثر القادر على أن ينتصر

للحق، بل ربما أكدت للمراقبين الدوليين (العكس) وهو أن هذا الشعب فى حاجة إلى قوة قاهرة تتولى أمره(!!) وتنهى هذه المصادمات، وكان من الواضح أيضا أن أحداً فى المجتمع الدولى لا يرحب بمنح إمارة شرق الأردن إمكانات تساعدها على السيطرة على فلسطين ولا عن الدفاع عنها.. وذلك لكى تبقى شرق الأردن إمارة صغيرة.. ولتبقى فلسطين أيضا بمثابة لقمة سائغة للصهاينة.

من جانبهم فإن العرب وضعوا حدوداً قصوى لمشاركاتهم... فلم يفكر أحد فى أن يقدم لفلسطين أكثر من العون الذى يقدم إلى الجار، وانخرط العرب جميعاً فى الترحيب بأدوار اتهام الذات، وجلد الذات، وتوزيع الخيانة على أنفسهم، مع أن القضية كانت أكبر من خيانة هذا أو ذاك.. ولا تزال كذلك!!

وعلى حين نتعجب من قسوة سعد زغلول على معارضيه فى ١٩١٩ و١٩٢٠ و١٩٢١، فإننا نتمنى لو كان ظهر فى فلسطين سعد زغلول فلسطينى يقسو على الآخرين حتى يواجه «العدو» الجديد والقديم بشعب واحد يجتمع على قلب رجل واحد.. ويحقق بالتدريج والتتالى كل ما يصبو إليه من استقلال تام، سواء تم هذا على يد عبدالخالق ثروت فى ١٩٢٢، أم النحاس فى ١٩٣٦، أم محمد نجيب وجمال عبدالناصر فى ١٩٥٤.

❑

وفى كثير من صحف مصر الصادرة فى ١٩٣٦ صورة تدلنا على أن إيدن الذى حضر الحفل الخاص بتوقيع المعاهدة المصرية البريطانية مع النحاس باشا، كان هو نفسه الذى بقى قريبا من صدارة السياسة البريطانية (وإن لم يكن بقاؤه متصلا وإنما كان متقطعا بالطبع تبعا لفوز أو عدم فوز حزبه فى الانتخابات) حتى قاد تحالف العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦، وسقط بعدها من صدارة السياسة البريطانية بعد أن وصل إليها بعد طول انتظار.

ومن الطرائف أنه فى سنه الكبيرة كان قد وقع أسيراً لفكرة إظهار عظمته أمام

زوجة شابة كان عمها هو ثعلب السياسة البريطانية العجوز ونستون تشرشل(!!) وهو فى ذات الوقت سلفه فى رئاسة الوزارة والحزب الذى كانا ينتميان إليه.

وكما لم تفلح عشرون عاما من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٦ فى إبعاد إيدن عن مكانه بين صفوف الساسة فى بلاده.. أيضا لم تفلح عشرة شهور من ديسمبر ١٩٣٥ إلى سبتمبر ١٩٣٦ فى أن تصل بالفلسطينيين إلى تكوين رأى فيما يتعلق بمشاركتهم أو عدم مشاركتهم فى مجلس تشريعى قررت بريطانيا إنشاءه، وكانت حكومتها هى التى تتولى حكم فلسطين قبل أن تترك الأمور بطريقة مريبة وتمضى.. كانت هناك إذاً فى فلسطين حكومة بريطانية محتلة «مستعمرة»، وهى فكرة مختلفة بالطبع عن فكرة المراقبين الدوليين التى كان البعض ينادى بها فى ٢٠٠١، ولكن الذى يجمع بين الفكرتين هو القبول بفكرة وجود طرف ثالث على أرض يجرى عليها النزاع بين أصحابها الأصليين، وبين محتلين جدد يدعون ملكيتها بالزور والبهتان.

ولا أظن أن فلسطين تحتاج حلا من هذا النوع، لكنها تحتاج حلاً من طراز العاشر من رمضان.

أول انتصار حقيقى

يدرك الذين درسوا التاريخ وتأملوه أن القضية الفلسطينية منذ اندلاع الانتفاضة الثانية تعيش أزهى عصورها بلا أدنى مبالغة، ولم يحدث فى تاريخ هذه القضية أن وصلت الإرادة ولا الإدارة إلى ما وصلت إليه فى هذه الأسابيع، مهما بدا من قسوة الثمن وفداحة المقابل من الأرواح والأبدان، ويدفعنى إلى تقرير هذه الحقيقة عدة ظواهر واضحة لا يمكن أن نغفلها، ولا أن نتغاضى عن القراءة الجديدة بها:

(١) فلأول مرة يحارب الشعب الفلسطينى بمفرده وعلى أرضه هو، ففى كل جولات الصراع العربى ـ الإسرائيلى كانت هناك جبهة أو جبهات تتولاها قيادات عربية من هنا وهناك، سواء أتعددت هذه الجبهات لتشمل جيوش الدول العربية المستقلة جميعا على نحو ما حدث فى ١٩٤٨، أم تفردت (مقصورة على مصر) فى ١٩٥٦ وحرب الاستنزاف، أم كانت ثنائية (مصر وسوريا) على نحو ما حدث فى ١٩٧٣، أم ثلاثية (مصر وسوريا والأردن) فى ١٩٦٧.

أما اليوم فى ٢٠٠٢ فإن الفلسطينيين يحاربون وحدهم والعدو من أمامهم ومن

خلفهم ومن تحتهم ومن فوقهم وعن يمينهم وعن يسارهم، ومع هذا فإنهم يحرزون النصر المحدود تلو النصر المحدود، ويلقون بالرعب فى أفئدة العدو، ولو وفق الله الانتفاضة الفلسطينية للاستمرار بنفس قوة الدفع لفترات أطول، فلن يبقى فى إسرائيل كلها عشر سكانها، وسيتولى المجتمع الدولى من خلال منظمات اللاجئين توطين سكان إسرائيل الحاليين فى كندا وأستراليا وجنوب إفريقيا ونيوزيلندا، فضلا عن بعض الولايات المتحدة الأمريكية.

❑

(٢) لأول مرة يحارب الشعب الفلسطينى بينما قيادته فى داخل أرضه فى رام الله، ولا يمكن إغفال المقارنة بين هذا الوضع والأوضاع السابقة حين كانت هذه القيادة فى بيروت أو تونس أو دمشق أو عمان، أو حين لم تكن هناك قيادة على الإطلاق، ولا يمكن لأحد أن ينتقص من قيمة هذه المزية المعنوية الهائلة، وقد كان الرئيس مبارك فى قمة صفائه الذهنى والعقلى وإجادته لتقدير الموقف حين نصح الرئيس ياسر عرفات بالبقاء فى وطنه وعدم الخروج، ووجه نصيحته له على الملأ وبما لا يدع لأحد آخر فرصة نصحه بالاتجاه المعاكس، ومن ثم بقى ياسر عرفات فى رام الله بمثابة قلب وعقل للفلسطينيين، يتوجهون إليه، ويحيطون به، ويسعدون بوجود قيادتهم بينهم، ولهذا فإن الحركات الفلسطينية المختلفة كانت عند حسن الظن بها ولم تفكر فى اللحظة الراهنة إلا فى الالتفاف حول عرفات ورفع راية الوحدة والاتحاد فوق كل راية أخرى لرأى أو فكر.. ولهذا شعر كل الفلسطينيين بأن هناك ما يجمعهم على قلب رجل واحد من أجل وطن واحد طال اغتصابه.

❑

(٣) لأول مرة يظهر للمتأملين وللمنصفين من قراء التاريخ العربى المعاصر مدى الفوائد التى حققتها المساعى السياسية والدبلوماسية السابقة، فإلى اتفاق أوسلو وما تلاه يرجع الفضل فى أن أصبحت لفلسطين حكومة وقيادة وسلطة داخل الأرض الفلسطينية

نفسها، وبعيداً عن أرض الشتات، وعن سيطرة وتوجهات الحكومات العربية الأخرى التى تقيدها التزاماتها ومصالحها. وهو الوضع السابق المؤلم أو المحرج الذى جعل الفلسطينيين يتخذون - رغم أنوفهم - مواقف حادة حسبت ضدهم وأساءت إلى صورهم فى عقود سابقة، سواء فى هذا الموقف من غزو العراق للكويت (١٩٩٠ - ١٩٩١)، أم الانضمام إلى جبهة الصمود والتصدى فى محاربة مصر قبلها بأكثر من عشر سنوات (١٩٧٨)، وفى تلك الأجواء لم يكن القرار الفلسطينى حرا تماما، أما اليوم فإنه حر إلى النهاية وإلى الأعماق، بينما السلطة الفلسطينية نفسها محاصرة فى رام الله، وهكذا تأكد للجمهور العربى أن **الحرية ليست حرية الحركة، وإنما هى حرية الإرادة**، فبحرية الإرادة لسلطة رام الله يواجه شعب فلسطين كل جحافل البغى والعدوان دون أن تغل القيود المادية يدها عن التصدى للهجوم الظالم بكل ما فى إمكانها مهما بدا ضئيلا وغير متكافئ.

❑

(٤) لأول مرة يظهر التورط الأمريكى واضحاً جلياً بكل ما يحمله من سوء النية وخبث الطوية، وليس فى مقدورى أن أتجاهل تكرار ما سبق أن كررته، وما أستناوله بالتفصيل فى فصل تال من هذا الكتاب، من أن استفادة أمريكا من إسرائيل تفوق استفادة إسرائيل من أمريكا بمراحل، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ترينا الأزمة الحالية مدى صواب هذه الحقيقة التى نتغاضى عنها أو نحاول التغاضى، ونظن أنفسنا قد أدركنا الحقيقة بينما نحن نعيش صورة مغلوطة من صنع البعض منا، فإسرائيل لا تكلف أمريكا إلا بمقدار ما تكلفها حاملة طائرات أمريكية ضخمة تتمركز فى البحر الأبيض المتوسط، ولكنها تقوم لأمريكا بدور كبير جداً يمكن تقريبه لأذهان القراء بأنه دور البلطجى الذى يحمى علب الليل، أو البلطجى الآخر الذى يوظفه رجال الأعمال الفاسدون، أو البلطجى الثالث الذى يحظى برعاية العمدة أو السلطات المحلية لأنه مرشد مستتر.

ويبدو لى أن عجز الإدارة الأمريكية الحالية عن إتقان تمثيل دور راعى حمى الحرية سوف يفتح أعين العرب والمسلمين والفلسطينيين على حقيقة العدو الذى يواجهونه، وهو العدو الذى غذى إسرائيل بالدبابات الحديثة محمولة بالطائرات إلى مطار العريش فى ساعات قلائل فى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، من خلال جسر جوى لم ينقطع فى أقصى مساندة بذلت لمحاولة إجهاض نصر مبين لم يتوقعه أحد، ولم تدرك جوانب العظمة فيه حتى الآن.

الفلسطينيون يكرسون نجاحاتهم

فى القرن العشرين كان من حظ الفلسطينيين أو من سوء حظهم، أن ابتلوا بالأطماع الصهيونية الصريحة، وابتلوا بالإضافة إليها بقدر هائل من الانقسامات الداخلية التى أضعفت موقفهم فى مواجهة عدوهم، ثم ابتلوا بعد هذا بقدر كبير من المزايدات العربية التى دفعتهم إلى التيه فى طرق واسعة أو الانحصار فى سراديب مظلمة أيضا.. وشأن كل حق يظل صاحبه من وراء المطالبة به أخذ الحق الفلسطينى يتبلور للعالم كله على نحو كفيل بعودته بإذن الله، ولم يكن هذا الحق ليعود بدون تضحيات عظيمة يقدمها شعب عظيم، فهذا من شأن التاريخ، ومن طبائع الحياة، وسينتصر الفلسطينيون فى النهاية مهما بدا لنا من حرج موقفهم، وصعوبة أحوالهم، وستعود الأرض السليبة إلى أصحابها ماداموا على العهد بمطالبتهم بها، وسيعود اللاجئون الفلسطينيون إلى أرضهم التى حرموها منذ أكثر من نصف قرن، وستعود أجيال فلسطينية إلى أرض الآباء والأجداد، وسيكون الأبناء والأحفاد أكثر إيمانا بهذه الأرض وحبا لها.

وهذه مقدمة لازمة للحديث عن بعض المكاسب التى حققها الفلسطينيون منذ بدأت الانتفاضة وحتى الآن:

(١) أصبحت القيادات الفلسطينية تمتلك خبرة مريرة فى إدراك أهمية تحديد خصائص المناطق العازلة بينها وبين الجار الجديد/ العدو السابق حتى لو اضطرتها الظروف إلى طلب قوات دولية من البداية، وهنا يبلغ العقل العربى رشده ليدرك كيف كانت قوات الطوارئ الدولية التى وجدت بعد حرب ١٩٥٦ بمثابة عازل جيد ومفيد للقوات المصرية فى مواجهة غدر القوات الإسرائيلية، ومع هذا فإن أبواق الحماسة العربية استغلت اضطرار الرئيس عبدالناصر إلى إخفاء حقيقة نتائج حرب ١٩٥٦ لتضغط على أعصابه وعلى قراراته بأقوال وادعاءات من قبيل إنه يحتمى بهذه القوات!!

وقد أدت هذه المزايدات والضغوط إلى وقوع الزعيم عبدالناصر، بل الأمة العربية كلها من ورائه فى بئر عميقة لم نصعد منها حتى الآن.

وعلى العكس من هذا فإن القيادات المصرية فيما بعد اتفاقيات السلام وحتى اليوم لم تفسح المجال لأية محاولة حماسية تدعوها إلى نقض أى بند فى هذه الاتفاقيات حتى لو لم يكن الطرف الآخر متربصا بالحرص على استغلال واستثمار نقض البنود.. ولم يجد المصريون المتعقلون فى وجود قوات دولية إلا أحد الإجراءات الروتينية اللازمة لإتمام عملية السلام واستعادة الأرض والحق..

وأعتقد أن الغدر الإسرائيلى الذى قاده شارون سيجعل الفلسطينيين يدركون القيمة الحقيقية للآليات التفاوضية وما بعد التفاوضية.

❑

(٢) ظل الفلسطينيون طيلة العقود الماضية من الزمان يبتهجون بالبيانات الحزبية الصادرة عن الأحزاب الشمولية الحاكمة فى الدول الشرقية ويظنونها بمثابة قمة التفهم الدولى لمشكلتهم، فإذا هم فى محنة رام الله يدركون دورا أقوى وأبعد وأعظم تأثيرا لمنظمات غير حكومية ولأفراد من المجتمعات الدولية والمجتمع الغربى على وجه العموم، ووصل الحال ببعض هؤلاء «الانسانيين» إلى تكوينهم دروعا بشرية لحماية

عرفات، وبدأ تواصل من نوع ساخن بين كثير من منظمات غير حكومية حقيقية وبين القضية الفلسطينية على نحو يكفل مع الزمن أن تتغلغل الحقائق عن هذه القضية وتنتشر فى كل مجتمعات الدول صاحبة القرار.

وصحيح أن روح المساندات الأوروبية تفوق المساندات الأمريكية، لكن لابد لنا أن ندرك أن هذه هى طبيعة تلك المجتمعات، فالآراء الجديدة تأخذ وقتا حتى تنال تبنى الأمريكيين لها، ومهما وصلت سطوة المؤسسات الصهيونية واليهودية فى داخل الولايات المتحدة، فإن المجتمع الأمريكى يملك صمام الأمن المعرفى والتوجهى بحكم كونه، فى صفوته وفى مؤسساته، مجتمعا قارئا ومطلعا على الدقائق المتاحة عن كثير من الأحداث.

❑

(٣) على الرغم من كل الانحياز الأمريكى السافر إلا أن التأمل المتأنى فى بعض ما تضمنته التصريحات والتعبيرات يكفل لنا الأنتباه إلى وجود بارقات أمل كبيرة فيما يتعلق بتطور صياغة الرؤية الأمريكية تجاه بعض الجزئيات وإن لم يكن تجاه القضية برمتها ، مما يدل على إمكانية وصول الفهم الأمريكى مع الزمن إلى درجات أفضل مما كان عليه سابقا، وعلى سبيل المثال فإن أقصى ما وصلت إليه إدارة الرئيس كلينتون فى شأن المستوطنات كان وصفها بأنها عثرة فى طريق السلام، أما كولين باول الذى لا نكف عن نقده فقد وصل فى وصف المستوطنات إلى القول بأنها ذات أثر مدمر.

وليس معنى هذا أن الإدارة الحالية فى مجمل موقفها قد سبقت الإدارة السابقة فى التوجه نحو السلام وإقرار السلام، ولكن معناه أن تركيزنا الجيد على شرح نقاط معينة على نحو مكثف يكفل النجاح فى الجزئية التى نعنى بها، وهو ما يدعونا إلى التأكيد على أهمية علاج كل جزئية بطريقة مكثفة ومركزة إعلاميا وتفاوضيا وذلك من أجل تحقيق نجاحات متواصلة فى ميادين كثيرة، والأمر فى هذا شبيه بالعناية التى يلقاها

جرح سطحى فى مريض يعانى من كسور مضاعفة فتكون المحصلة أن يكون النجاح فى علاج الجرح السطحى بارزاً بينما لا يزال علاج الكسور يأخذ سبيله، ومع هذا فان الجرح السطحى الذى أصاب الشفاء يشجع المريض من حيث هو يعطيه الأمل فى أن تصبح كل معاناته ذات نهاية حسنة على نحو ما حدث لهذا الجرح السطحى.

ومجمل القول فى هذا الصدد: **إن العناية بالجزئيات لا تتعارض مع العناية بالكليات** مع أنها بالطبع لا تغنى عنها ولا تعوض.

❑

(٤) تحولت القضية الفلسطينية بقدر كبير لا حدود له، إلى أن أصبحت قضية دولية بكل ما تعنيه الكلمة، ومهما بدا من انحصار أوراق اللعب فى يد أمريكا، فإن هذا الانحصار نفسه يأتى من كون أمريكا هى القوة الدولية الأولى، ولا يأتى من كونها أعظم الدول فحسب، وستفرض المسئولية الدولية على الولايات المتحدة توجهات أكثر معقولية والتزاما بالقانون الدولى، وسيصبح من الصعب على أى إدارة أمريكية فى الشهور والسنوات القادمة أن تتجاهل الأبعاد الدولية التى أصابتها قضية فلسطين، ولن يصبح فى مقدور أى رئيس أمريكى أن يظهر الانحياز الكامل على النحو الذى بدا فى بعض الأوقات،وإذا صح الافتراض الذى أكرره من أن أمريكا هى التى تستفيد من إسرائيل بأكثر مما تستفيد إسرائيل منها، فسوف تضطر أمريكا نفسها إلى تقليل استفادتها المعتادة من إسرائيل إلى حدود معقولة.

بل ربما تدرك أمريكا أن الأوان قد آن لتتوقف عن لعبتها الخطيرة التى تستغل فيها تطرفات يهودية وصهيونية من أجل مصلحتها المباشرة وغير المباشرة، وعندئذ فليس من المستبعد أن يتضاءل الكيان الصهيونى إلى أقل الحدود، ولن يكون هذا بالأمر العجيب فى ظل الظواهر الكونية والتاريخية القابلة للانكماش وللتلاشى أيضا.

❑

(٥) تظهر قوة الانتصارات الفلسطينية مدى العقم الذى أصاب المؤسسة السياسية

الإسرائيلية، بما فيها المؤسسة العسكرية التى هى أم هذه المؤسسات جميعاً، فنحن لا نرى وجوها سياسية جديدة، حتى وإن كانت ضعيفة، على نحو ما رأينا باراك ونيتنياهو من قبله منذ سنوات قلائل، لكننا نواجه بالبقاء الممقوت لشخصيات انتهت صلاحيتها كما انتهى دورها من أمثال بيريز وشارون، وليس من شك فى أن هذه الحالة من العقم التى سادت المؤسسة السياسية الإسرائيلية خلال العامين الماضيين تنبئ بوضوح عن بدء ظاهرة الأفول فى الإسرائيليين.

وفى المقابل ـ وهذا هو المهم ـ فإننا نجد الفلسطينيين يقدمون زعامات جديدة على مستويات متعددة، نجد المرأة الفلسطينية تتصدى للاستشهاد، وتخلد أسماء مثل: آيات الأخرس ووفاء إدريس، ونجد قيادات حماس على مستويات متعددة وهى تنطق بوعى سياسى، وقبل هذا نجد ما لا يقل عن عشرة من قيادات السلطة الفلسطينية وهى تتحدث ـ أو يتحدث عنها ـ فى جميع قنوات العالم حديثا ينبئ عن قدرات سياسية متميزة ومتجددة، ولا تتولد إلا مع المحن. فهناك مروان البرغوثى، وصائب عريقات، وياسر عبد ربه، وفاروق قدومى، وأبو مازن (محمود عباس)، ونبيل شعث، ومحمد جبريل، ونبيل أبو ردينة، وحيدر عبدالشافى ومحمد رشيد، ومحمود درويش وفضلا عن هؤلاء نرى الفلسطينيين فى مواقع متقدمة فى الجامعة العربية : سعيد كمال، ومحمد صبيح، وحنان عشراوى، وفى المنظمات الدولية وخارج الوطن.. وكل هؤلاء أصبحوا نجوما حقيقيين ينبئون بكل وضوح عن دولة صاعدة على وشك القيام، وعن مجتمع وشعب لا يقبل ولن يقبل الزوال.

3

الفلسطينيون بين الحرب والسلام

- ❏ الفلسطينيون يمارسون سياسة البامبو
- ❏ الدولة الفلسطينية القادمة
- ❏ هل يكون الرئيس الفلسطينى القادم أكثر حظاً ؟

لا يمكن بأى حال التقليل من النجاح والتألق الذى أحرزته القضية الفلسطينية منذ بدأت انتفاضة الأقصى، ومهما بدا لنا من قسوة وغطرسة القوة التى تمارسها حكومة شارون بدعم خفى ومعلن من الإدارة الأمريكية، فإن حقيقة الأمر أن القضية الفلسطينية خطت خطوات واسعة على طريق النصر والتحرير والعودة، ولن يمكن لأحد أن يفصل أيا من هذه الإنجازات الثلاثة عن بعضها البعض، ستتحرر أراضى فلسطين، وسيعود اللاجئون الفلسطينيون إلى أرضهم، ولن تتمكن قوة فى الأرض من الوقوف أمام عجلة التاريخ التى دارت بالفعل لتحقق للفلسطينيين حضورا مكثفا لم يتحقق لهم على مدى الأعوام السبعين التى شهدت نشأة قضيتهم وتطورها إلى حيث صارت اليوم.

ولا يمكن بأى حال أن نزعم أن أوضاع الفلسطينيين اليوم أسوأ من أوضاعهم بالأمس، ولا أن ننتصر للفكرة القائلة بالفرص الضائعة، فمع كل إيماننا بأنه كانت هناك فرص ضائعة فى مسار الصراع العربى - الإسرائيلى، إلا أن الأمر يختلف تماما فيما يتعلق بالفلسطينيين، وسأضرب مثلا واحدا للتدليل على هذا، فقد كان ياسر

عرفات - الذى هو اليوم ملء السمع والبصر - موجودا هو وإخوانه قبل ١٩٦٧، لكنه لم ينجح ولم يتمكن من لقاء رئيس أكبر دولة عربية وهى مصر. وكان الرئيس جمال عبد الناصر يرى أن مصر ليست على استعداد للتورط مع إسرائيل فى حرب، ولهذا تهرب من مقابلة ياسر عرفات ومجموعة من منظمة فتح، وهذا هو السبب الحقيقى لموقف عبدالناصر بعيداً عن أكاذيب الذين يزيفون التاريخ بعد وقوع الأحداث، وحين التقى الرئيس عبدالناصر بياسر عرفات ورفاقه بعد حرب ١٩٦٧ أنكر أنه يعلم أنهم طلبوا مقابلته من قبل، وفى لقاءات عبد الناصر بهم طلب منهم طلبا محددا ومتواضعا أن يسمع كل يوم خبرا عن رصاصة - ولو واحدة - أطلقت ضد إسرائيل.

أين هذا الوضع من الوضع المتميز الذى وصل الفلسطينيون إليه اليوم؟

إن تأمل التاريخ ينبئنا أن ما وصل إليه الفلسطينيون اليوم تكرس بوسائل عسكرية وسياسية ودبلوماسية، تكرس بالنصر المجيد الذى تحقق فى الانتفاضة الأولى، وقبلها فى حرب ١٩٧٣ المجيدة، وتكرس أيضا بفضل كامب ديفيد الأولى وأوسلو الأولى والثانية، بل تكرس كذلك بفضل كامب ديفيد الثانية التى لم تحرز نتائج لكنها سجلت مواقف، بل تكرس أيضا، بطريقة غير مباشرة، بفضل هزيمة ١٩٦٧ المروعة التى انطلق منها نصر ١٩٧٣ المجيد.

❑

ونخطئ حين نظن أن حركة التاريخ نتاجا لحدث واحد أو إنجاز وحيد، إنما هى محصلة حسابات معقدة لخطوات متعددة تبدو فى صورة انتصارات وهزائم لكنها تفرز فى النهاية نتيجة تاريخية كالتى يعيشها الفلسطينيون اليوم فى ملحمة رائعة تجسد الصمود والنجاح والاستبسال، وتعبر عن الإيمان بقضيتهم، وهو أبرز عامل من عوامل النجاح، وتظهر مدى قدرتهم على خوض الحرب من أجل قضيتهم الأصلية، وعلى وطنهم، وبمفردهم، ولهذه الصفات الثلاث أهمية كبيرة فيما يتعلق بالكفاح الفلسطينى.

❑ فمن ناحية الهدف فإننا على سبيل المثال نرى الفلسطينيين وقد استنزفوا كثيراً من قوتهم فى ١٩٧٠ فى معركة جانبية فى الأردن، كما نراهم فى ١٩٧٥ وقد انزلقوا إلى المشاركة فى صراعات لبنانية - لبنانية، ولبنانية - فلسطينية لم يكن من ورائها طائل، لكننا نراهم اليوم يحاربون عدوهم الأول والوحيد بكل وضوح، حتى ولو كانت هذه الحرب بين أفراد استشهاديين وبين جيوش متدرعة بالجبن والخسة.

❑ من ناحية المكان فالمعركة اليوم تدور على أرض فلسطين نفسها وليس على حدودها، ولا على جبهات بعيدة عنها.. لم تأخذ الحرب صورة الحرب الأهلية بعد، ولم تأخذ صورة الحرب النظامية، ولم تأخذ صورة الحرب المتوازية ولا المتوازنة، لكنها بكل بساطة حرب حقيقية تستنزف قوة العدو، وتوقف حركة الحياة المدنية، وتضطره إلى استدعاء الاحتياطى، وتكبد موازنته كل ما تكبده أصعب أنواع الحروب والأهم من هذا كله أنها تصور «الآخر» على حقيقته التى جاهد من أجل إخفائها.

❑ ومن ناحية الانفراد فهذه أول حرب يخوضها الفلسطينيون دون أن يعولوا على غيرهم من مشاركيهم على نحو ما حدث من أمل خائب فى سبعة جيوش عربية فى ١٩٤٨، أو على نحو ما حدث من امتداد الجبهة العربية إلى ثلاث جبهات فى ١٩٦٧ .. إلخ، إنما الفلسطينيون اليوم يحاربون «ببعضهم» وليس بمجموعهم، وإن كان هذا لا يمنع أن قلوبهم جميعا تلتف حول أولئك الذين يواجهون الموت بشجاعة وبسالة فائقتين من دون خوف أو وجل، ولكنهم يستقبلونه بصدور واثقة، ونفوس مطمئنة.

❑

بالإضافة إلى هذا كله فإن القوى الدولية التى تحس بأن عليها دورا تجاه القضية، تجد نفسها فى مواجهة قيادة فلسطينية وإدارة فلسطينية واعية إلى أبعد الحدود لمدى ما يمكن تحقيقه بكل وسيلة من الوسائل، وقد حاول بعض المحللين انتقاد سلوك القيادة

الفلسطينية فى استبقاء كل المسالك فى متناولها جامعة فى هذا بين السعى إلى السلام، والسعى إلى المواجهة فى الوقت ذاته، ومع أن هذا قد يبدو فى صورة التصرفات المتناقضة، إلا أن الفلسطينيين استوعبوا الوسائل الإسرائيلية والصهيونية فى التعامل ولم يعودوا بقادرين على أن يحرموا أنفسهم من مواجهة عدوهم بنفس الأساليب المازجة بين الخيارين الإستراتيجيين.

ويبدو أن هذا المزج ضرورى لتنبيه آلة السياسة الأمريكية نفسها، بل يبدو أن هذه الآلة لا تعمل إلا فى هذا المناخ الذى يجمع بين المسارين فى طريقين يبدوان منفصلين، وإن كانت بدايتهما واحدة ونهايتهما واحدة.. وكأن هذين المسارين متوازيان دائما لكنهما مع هذا يلتقيان فى البداية والنهاية بفعل قدرة البشر الذين يمسكون بأطراف القضية، وهى الصورة التى يمكن تقريبها إلى ذهن القارئ بعصاتين طويلتين من البامبو، يمسك صاحبهما بطرفيهما بيد وبالطرف الآخر باليد الأخرى، ويضغط عليهما لخلق حالة من التوتر، فيبدوان للناظر من بعيد كأنهما متوازيان تماما، ويرصد المراقبون تبعا لقواعد الرياضة والفيزياء أن هذين الخطين المتوازيين لا يلتقيان حسب القاعدة المشهورة، لكن الذين يدركون حقائق الأشياء يعرفون أن هاتين العصاتين تبتدئان معا (فى يد صاحبهما) وتنتهيان معا (فى اليد الأخرى لصاحبهما)، ومع هذا يظلان متوازيين ويبدوان وكأنهما لا يلقيان طوال الجزء الأطول من مسيرتهما الظاهرة أمام الأعين المراقبة، وهذا، على وجه التقريب، هو ما يسيطر الآن على ثنايا أحاديث الكتابات المحللة للموقف الفلسطينى.

وظنى أن هذا الأسلوب الذى يتبعه الفلسطينيون الآن ويمارسونه باقتدار، هو الأسلوب الوحيد القادر على أن يمكنهم من تحريك قضيتهم العادلة وخلق أوضاع جديدة تتمكن بها هذه القضية من أن تخطو خطوات أوسع فى سبيل الحل النهائى.

ولا يمكن التسليم بأنه كان من الممكن للفلسطينيين أن يحققوا بعض ما حققوه من دون مزجهم بين المسارين بهذه السياسة.

وأمنيتى للاخوة الفلسطينيين أن ينجحوا بكل الطرق الممكنة فى أن يجعلوا الزمن يلعب لصالحهم، لأن الورقة الوحيدة التى يملكها شارون هى ورقة الزمن التى ظل يستغلها فى بناء المستوطنات وخلق أمر واقع جديد، ويكفى أن نقرأ فى مذكراته حديثه المبكر (منذ عشرين عاما) عن إيمانه المطلق بجدوى المستوطنات وفعالياتها كسلاح فى وجه الفلسطينيين، وذلك حيث يقول:

«من بين المسائل التى شكلت موضع جدال محتدم بيننا (أى بينه وبين رئيس الوزراء مناحم بيجين): سياسة المستوطنات، ففيما كنت أسعى بكد إلى الإسراع فى إنجاز المشروع، فضل بيجن أن يسير العمل على وتيرة معتدلة، تدفعه إلى ذلك أسباب سياسية وشخصية شتى، فحاولت جاهدا إفهامه أن ضمان أمننا القومى أولا يخولنا التصرف بحرية مطلقة لانتهاج سياسة استيطان، ولا يشكل الأمن فى نظرى كلمة تقال أو مفهوما مجردا، فهو لطالما اقترن بإقامة القرى، والهضاب، والمواقع الإستراتيجية، ولطالما كان رهن عمل دءوب، وزراعة، وصناعة، فى اختصار الأمن هو تأصل الرجال والنساء فى أرض الوطن. أما ثقتى بالألفاظ القانونية فكانت محدودة، وأنا ما كنت لأركن بالتأكيد إلى ضمانات ومعاهدات دولية لتحقيق أمننا القومى».

❑

وعلى الجانب الآخر فإن كل ما يمكن لإسرائيل أن تساوم بشأنه الآن وبعد هذا الكفاح الفلسطينى الذى أوشك على التتويج يكاد ينحصر فى محاولة تقليل أو اختصار أو اختزال «الحق» الذى سيعود إلى الفلسطينيين على مستوى الأرض وعلى مستوى الشعب.

فأما على مستوى الشعب فإن إسرائيل تحاول كل جهدها فى المساومة على حق العودة، ولا يستطيع شيطان كائناً مَنْ كان أن يحرم إنسانا كائنا مَنْ كان من أن يعود

إلى وطنه ومسقط رأسه وموطن آبائه وأجداده، وإذا صح أن إسرائيل قد نجحت فى زرع مستوطنين ومهاجرين، فإن العامل الدينى الإسلامى كفيل وحده فى مستقبل قريب بدعوة ملايين من دول العالم الإسلامى للقدوم أيضا إلى أرض مقدسة شهدت مسرى النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وكانت بمثابة أولى القبلتين للمسلمين، وعندئذ فلن يمكن للعالم كله أن يقف فى مواجهة موجات هجرة متدفقة من مسلمين متحمسين تجعل بقاء المستوطنين نوعا من أنواع الانتحار العاجل ، وإذا لم تنتبه السياسات الشارونية فى الوقت المناسب إلى خطورة سلوكيات الغطرسة والجبن والاستعلاء، فإنها ستفاجأ بانهيار كل ما استطاعت الحركة الصهيونية تحقيقه بجهد جهيد على مدى القرن العشرين.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فأنى أدعو كل عاقل أن يتبنى فكرة الدعوة إلى كثرة زياراتنا السياحية للقدس وللمسجد الأقصى حتى لا تنفرد به إسرائيل وحتى تتذكر على الدوام وفى كل يوم أنه أولى القبلتين ومهوى افئدة المسلمين من جميع أنحاء العالم، فذلك أدعى إلى خدمة القضية من الآراء الانكماشية التى ورثناها عن عصور سابقة لم تكن تقدر أثر الحياة والحركة الدينامية على مجريات السياسة والصراع السياسى.

وأما على مستوى الوطن فإن إسرائيل لا تزال تلعب اللعبة التقليدية التى بدأتها بصفة مكثفة عقب حرب ١٩٦٧ بمحاولة الحفاظ على أقصى ما يمكنها المحافظة عليه من الأرض التى احتلتها فى تلك الحرب الغادرة، وكلنا يذكر أن المفاوضات ظلت تدور طيلة عامين قريبين حول نسبة الأرض المعادة، وهل تكون ٩ ٪ أو ١٠ ٪ على سبيل المثال، ويبدو أن شارون وبيريز بأخلاق المرابين يظنان أن فى إمكانهما أن يختزلا هذه النسبة إلى ٥ ٪ على سبيل المثال، وهو نوع من أنواع الوهم الذى ستزيله قوة الشعب الفلسطينى وإرادته، وقبل هذا إيمانه بخالقه الذى شرع الدفاع عن الأرض، وجعل مَنْ يفقد حياته من أجل هذا الدفاع شهيدا حتى لو أرجف المرجفون، وحتى لو كره بعض الأمريكيين.

أصبح الحديث عن دولة فلسطينية مجالا لكثير من التكهنات والاجتهادات على الرغم من أن الفلسطينين أنفسهم هم أقل الناس حديثاً عن هذه الدولة ، ويبدو لى أن هذا فى حد ذاته يمثل خطراً من نوع خاص على تصور الفلسطينيين ورؤيتهم، ذلك أن الحكم على الشئ فرع من تصوره، ومادام الفلسطينيون لايشاركون فى الحديث الدائر عن التصورات المبدئية لهذه الدولة فإن حكمهم عليها سيتراجع لمصلحة حكم الآخرين بمن فيهم الإسرائيليون والأمريكيون ، ولو كان الأمر بيدى لدعوت جميع الفصائل الفلسطينية إلى الجلوس مع بعضهم البعض للتباحث فى صياغة الدولة الجديدة، لافى حدودها، ولا فى مساحتها فهذان بالذات أمران لن يكون للفلسطينيين وحدهم اليد الطولى فى تحديده وإقراره، وإنما تظل لهم اليد العليا والسلطة الكاملة فيما عدا ذلك من أمور الدولة . ومن ثم فإن عليهم أن يتناولوا هذه الجزئيات بالبحث والدرس المبكر على نحو ما تفعل معاهد الأبحاث السياسية فى العالم المتقدم.

إن وضع السيناريوهات والسيناريوهات البديلة ليس بالأمر الصعب كما أنه

لا يرتب مسئوليات تجاه التصورات، ولكنه فى المقابل يجعل صاحب الشأن يواجه شأنه وهو قادر عليه بالرؤية والفهم والتصور بدلا من أن يضيع وقته فى الاستيعاب فى الزمن الذى يصبح عليه أن يتخذ القرار فيه.

وظنى أن العرب جميعا مطالبون بأن يقدموا للفلسطينيين خلاصة خبراتهم البيروقراطية والسياسية فيما يتعلق بالدولة، وبناء الدولة، حتى يمكن لمشروع الدولة الفلسطينية أن يكون إضافة إلى الكفاح الفلسطينى الطويل وليس خصماً منه .

كأنى أريد أن أقول إن بوسع الفلسطينيين مع قدر كبير من الاجتهاد والذكاء أن يجعلوا من مشروع الدولة الفلسطينية القادمة أحد الأسلحة التى يتوجون بها كفاحهم المشروع والممتد على مدى العقود الماضية ، من الجدير بالذكر أن عدم الانتباه إلى مثل هذه الحقيقة سوف يكون خطراً، بل سيكون شراً على الفلسطينيين، لأنه سيتيح لعدوهم أن يرسم فى خصائص الدولة ما يكفل له تحقيق حلمه فى اختزال كل نجاح فلسطينى وفى تحويله إلى مصدر للعكننة والتنغيص على الفلسطينيين أنفسهم .

❑

لنفترض إذاً أننا وصلنا إلى مرحلة إعلان الدولة الفلسطينية وأنها أعلنت وأعلنت عاصمتها ، سيصبح من المنطقى عند ذاك أن يكون هناك قانون للجنسية الفلسطينية ، فإذا لم ننتبه منذ هذه اللحظة إلى ضرورة أن يكون هذا القانون قادراً على منح الجنسية الفلسطينية لكل مَنْ يحملونها الآن، فإننا سنكون على شفا الوقوع فى خطر ما يمكن أن نسمية مؤامرة «**التهجير الورقى**» وستكون من نتائج هذا التهجير الورقى أن تفقد شرائح كثيرة من اللاجئين الفلسطينيين الموجودين فى المعسكرات والمخيمات حق انتمائهم لدولتهم التى جاهدوا من أجل وجودها طيلة العقود الماضية وسيكون «التهجير الورقى» بمثابة أكبر سلاح فى يد العدو لإضاعة حقوق العودة على الفلسطينيين.

وليس يخفى علينا أن العدو المتربص قادر على أن يساوم فى هذه الجزئية على مدى سنوات وسنوات ، صحيح أن من حسن الحظ أن الفلسطينيين يحتفظون بكل الوثائق التى تكفل لهم الحصول على حقهم، لكن مَنْ ذا الذى قال إن هذه الوثائق كفيلة وحدها بأن تتصدى لغطرسة وافتراء عدو فاجر لايكف عن البغى والطغيان .

كذلك فإننا سرعان ما نواجه بالسؤال عن مصير الفلسطينيين الذين اضطرتهم الظروف إلى أن يصبحوا من عرب ١٩٤٨ ، وقد أصبحوا يحملون الجنسية الإسرائيلية بل إن إحدى طوائفهم تخدم فى الجيش الإسرائيلى بمقتضى منطق وقانون المواطنة، وهنا لابد أن يكون حظ العرب من الذكاء كافيا لأن يستبقوا لهؤلاء جنسيتهم الإسرائيلية التى يستحيل أن تسقط عنهم أصلهم الفلسطينى والعربى، بل إن بقاءهم محتفظين بهذه الجنسية الإسرائيلية هو فى رأيى أكبر مكسب يمكن تحقيقه من أجل استعادة الفلسطينيين للسيطرة على الأرض التى قامت عليها دولة إسرائيل بموجب قرارات ظالمة وتواطؤ قوى دولية.

وينطبق هذا أيضاً على كل فلسطينى ينتمى للمملكة الأردنية الهاشمية فليس من المصلحة أن يتخلى هؤلاء عن أردنيتهم ولاعن حقوقهم المكتسبة على مدى العقود الماضية، وإن ظلوا فى الوقت نفسه يعرفون ويدركون أن أصولهم فلسطينية ، ويصبح وضع هؤلاء أشبه ما يكون بوضع السودانيين الذين تجنسوا بالجنسية المصرية أو الحضارمة الذين تجنسوا بالجنسية السعودية وهكذا .. وليس هناك ما يمنع من أن يصبح هؤلاء وزراء ورؤساء وزراء فى الأردن على نحو ما حدث من قبل فى ظل حكم الملك حسين، بل لم يكن هناك ما يمنع من أن تكون زوجة الملك الأردنى الحالى فلسطينية، وثانية زوجات الملك السابق فلسطينية، وكل هذا يصب فى مصلحة فلسطين وفى مصلحة الأردن وفى مصلحة الأمة العربية جمعاء، ولنتذكر كثرة الساسة المصريين الذين تزوجوا من أجنبيات، وكثرة الأمراء السعوديين الذين تزوجوا من عربيات، ولنذكر أيضاً الوضع الطبيعى الذى تحظى به أرملة غاندى الإيطالية فى الهند.

وإذاً سيصبح هناك فلسطينيون لايحملون إلا الجنسية الفلسطينية، وسيصبح هناك شأن كل أصحاب الجنسيات فى العالم كله مَنْ يحمل جنسية غير الفلسطينية ولكنه يعتز بأصله الفلسطينى ، لكننا لابد أن نفكر بصوت عال فى الفلسطينيين الذين حملوا على مدى السنوات الخمسين الماضية جنسيات عربية أخرى ، وظنى أن على هؤلاء أن يسارعوا بالحصول على الجنسية الفلسطينية حتى لو اقتضاهم هذا الإسراع أن يتنازلوا عن جنسياتهم الأخرى، أو أن يجعلوها فى المحل الثانى، ذلك أن هؤلاء مهما كثر عددهم فى أيه دولة لايمثلون ما يمثله الفلسطينيون فى الأردن أو ما يمثله الفلسطينيون فى إسرائيل ذلك أن هؤلاء وأولئك مواطنون فى دولتين مجاورتين لدولة فلسطين القادمة شأنهم كما ذكرنا كالسودانيين المتمصرين والحضارمة المتسعودين، بل إن شانهم شبيه بالإيطاليين أو الفرنسيين فى سويسرا .

وعلى النقيض من هذا فإن بقاء جنسيات الأقليات المتناثرة من الفلسطينيين فى الخليج أمر مختلف ذلك أنها تصب فى النهاية فى مصلحة الدعاوى الإسرائيلية الباطلة بامكان استيعاب الفلسطينيين فى البلاد العربية، وهى الأباطيل التى لابد من مواجهتها واستباقها بأقصى ما يمكن من فكر واع ومتحسب لكل الآراء القانونية والدولية ولكل تصرف إدارى أو سياسى أو قانونى .

هذا، ولست أجد ختاما لهذا الحديث من أن أقول إن رأيى فيما يبدو لى لا يزيد عن أن يكون صوابا يحتمل الخطأ.. والله ورسوله أعلم.

هل يكون الرئيس الفلسطينى القادم أكثر حظاً ؟

تتعدد الاجتهادات فى كل جزئية من جزئيات الإجابة عن مثل هذا السؤال ، وربما بدا لى أن أطرح هذا السؤال لكى أصل من خلاله إلى حقيقة أن الرئيس الفلسطينى الحالى أبو عمار ليس أقل حظاً من الرئيس الفلسطينى القادم بأى حال من الأحوال ، وعندى من المبررات كثير مما يعرفه القراء:

(١) فأى نجاح سياسى يحققه أبو عمار يصور على أنه توج مرحلة كفاح سابقة طويلة وممتدة، وهكذا فإنه يستحق أن يكون صاحب الفضل التاريخى والواقعى والبروتوكولى عند إعلان الدولة الفلسطينية، أما إذا لم يتحقق هذا إلا على يد رئيس جديد فما أسهل القول عند ذاك أنه - أى الرئيس الجديد - قد قطف ثمار جهود أبى عمار، وليس هذا بالأمر السهل خصوصا أن الدعاية العرفاتية لاتزال تصوره قادراً على تحقيق الحلم وما هو أبعد من الحلم ، ويزايد عرفات نفسه فى أهدافه كلما تراءى للناس أن أهدافه قد تقلصت أو انكمشت، وهو خلق سياسى من ناحية ، وخلق عربى من ناحية أخرى، ونحن لانزال نذكر، بكل أسف، أن مقارنة بعض الأقلام الشابة،

والتى تدعى الشباب، بين الزعماء المتعاقبين فى أقطار عربية متعددة تتعمد عدم المقارنة بين ما حققه هؤلاء الزعماء (بل تتجاهل هذا تماماً) وتنتصر فى المقابل وفى البديل لمدى ما كان هؤلاء ينادون بتحقيقه حتى لو أنهم لم يبذلوا من أجله أى جهد وحتى لو أنهم حققوا عكسه على طول الخط.

والأمر فى هذا شبيه بالمقارنة بين اثنين من مدربى فرق كرة القدم عند التعاقد معهما وحجم ما يقدمانه من تصور ، ثم تمضى السنوات فإذا حدث أن فشل فريق النادى فى إحدى المباريات فإن عواجيز الفرح (وبعض الكتاب) يلقون المسئولية على إدارة النادى التى اختارت هذا المدرب على حين أن المدرب الآخر كان ذا خطة أكثر طموحاً .. ولهذا يحرص المدربون الذين يتعاملون مع معطيات أقوال الصحافة أن يبدأوا بالمزايدة إلى أبعد الحدود على الرغم من كل الظروف التى يرونها غير كفيلة بتحقيق مزايداتهم ..

وقد اضطرت الظروف الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات، فيما يبدو، لمثل هذا السلوك، غير أنه وبذكاء الزعماء استطاع، وإن أتى هذا فى وقت متأخر، أن يصل إلى بعض الحلول التى مكنته أخيراً من أن يقود جهاد شعبه من على أرض وطنه ومن داخلها، وهو انتصار كبير لايزال بعض العرب غير واعين بقيمته، دون أن ندرى أنه بمثابة مفتاح الطريق إلى النصر النهائى ، ولن يكون أى زعيم أو رئيس فلسطينى قادم بصاحب حظ أفضل من حظ ياسر عرفات إذا لم يستطع أن يتنبه إلى أهمية تطوير الاستفادة من هذا الوضع الجديد واستثماره من أجل تحقيق نصر نهائى للفلسطينيين.

❑

(٢) يبدو حديث الساسة الغربيين، وفى مقدمتهم ساسة البيت الأبيض على وجه التحديد، عن أخطاء عرفات وتجاوزاته كنوع من الطعم الذكى الذى يقدم للطموحين إلى احتلال مكانة الرئيس الفلسطينى، وشأن كل طعم فإنه يفقد بحكم الزمن كثيراً من قوته البيولوجية والكيميائية ويصبح الأمر فى حاجة إلى طعم جديد ، وبفطرة السياسى

المحنك فإن الرئيس عرفات يدرك مثل هذه الحقيقة ويعمل على قتل الطعم بالزمن الذى هو كفيل بقتل كل شئ، لأن لكل شئ عمراً ، وهكذا فإن الرئيس عرفات لايمانع فى أن يتظاهر بأنه يبتلع الطعم المتاح من ناحية حتى لايكون من نصيب غيره، ومن ناحية أخرى حتى لايظل الطعم مغريا لغيره ..

وهكذا فإن عرفات بذكاء يحسب له، ويحسد عليه أيضا، استطاع، منذ فترة، أن يفوت الفرصة على أى رئيس قادم ليكون رئيساً قادماً، وعرفات يدرك بكل وضوح أن الصياغة الأمريكية لأى طعم قد تمت بالاستعانة ببعض رجاله أو ببعض المقربين من رجاله على الأقل، وهو لهذا قادر بالطبع على أن يقدم الترياقات المضادة للأجسام المضادة التى خلقت له ، فإذا كان السم ذاتيا فإنه يخلق له ترياقاً ذاتيا أيضاً ، وهكذا يتغلب عرفات على الآثار المحتملة لأى إغراء يدفع بأحد معاونيه إلى احتلال مكانه .. فإذا ماحدث احتل أحد هؤلاء مكان عرفات فإن الآخرين الذين كانوا يرون الطعم أيضا لن يبخلوا عليه بالمزايدات أو المناقصات فى الوقت ذاته.

وهكذا، مرة ثانية، فإن الرئيس الفلسطينى القادم لن ينجو من المزايدات ولا من المناقصات على حد سواء ، يزايد عليه زملاؤه بالتصريحات التى تنسب إليه باعتباره رأس النظام الجديد ولن يكون فى وسعه أن يوقف كل هؤلاء المنافسين عند حدهم فى لحظة واحدة، وإنما هو يحتاج بالطبع لبعض الوقت من أجل هذا، بينما تتناقص، من ناحية أخرى، المعطيات المتاحة أمامه من أمريكا وإسرائيل اللتين ألقيتا له بالطعم دون أن تلزم أى منها نفسها بشئ فى مقابل تنفيذ الفلسطينيين لسياسات الإصلاح .

وهنا ينبغى لنا أن نذكر أن الصياغات الدبلوماسية الأمريكية لم تصل بعد إلى درجة القول بصفقة متكافئة من قبيل :

« الدولة في مقابل الإصلاحات » .

أى «قيام دولة فى مقابل تنفيذ الاشتراطات المالية والتشريعية والأمنية» .

وربما تمضى سنوات حتى نصل إلى حالة كالتى سبقت مؤتمر مدريد الذى رفع شعار «الأرض مقابل السلام» ..

وهكذا مرة ثالثة، يبدو الرئيس عرفات وهو لايزال أكثر حظاً من أى رئيس قادم فيما يتعلق بمدى قدرته على التعامل مع طراز «المساومات بالتلويح والتلميح» الذى ابتدعته السياسات الأمريكية فى مواجهة القدرات التفاوضية للعرب على محاور متعددة ذات مداخل مختلفة مثلتها مصر، والسعودية، والأردن، وفلسطين نفسها ....

❑

(٣) تكتسب السلطة فى العالم العربى، كما نعرف، صلاحياتها من خلال عوامل متعددة من أهمها التراكم التاريخى لمدى ما استأثرت به الزعامة من سلطة، وفى هذا الصدد فإن جزءا كبيرا من سلطة عرفات قد تكرس على مدى السنوات ولاننسى أن لأبى عمار نفسه «قمصان» متعددة:

- فهو زعيم فتح التى هى أقوى أجنحة منظمة التحرير الفلسطينية.
- ومن ثم فهو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.
- ولما كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أصبحت بمقتضى قرارات عربية دولية (كان لمصر فضل كبير فيها) بمثابة الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى فقد تفاوض العالم والمجتمع الدولى مع ياسر عرفات كممثل للشعب الفلسطينى.
- ثم جاءت الانتخابات التى تلت اتفاقات أوسلو وأقرت من خلال صياغات سياسية وتشريعية بمبدأ زعامة عرفات.

وعلى مدى ثلث قرن كان عرفات يضيف إلى سلطاته وصلاحياته ويكرس من هذه السلطات والصلاحيات لتصب فى معادل موضوعى لمؤسسة الرئاسة فى أى نظام رئاسى، ومع هذا ظل «ممثل فتح» فى بعض الأحايين أو فى بعض العواصم يفوق فى قوته «ممثل منظمة التحرير» أو «ممثل السلطة الفلسطينية القائمة»، وهو وضع كان

«يتفلتر» بالطبع بفضل وجود ياسر عرفات وتاريخه وعلاقة الزعامة التى تربطه بكل معاونيه ومواطنيه.

فهل يصبح من حظ أى رئيس فلسطينى قادم أن يمارس صلاحيات الرئيس نفسها، وبالدرجة ذاتها من القوة والتأثير! ..

إننا نتناسى قدرة عرفات الهائلة على إقامة المحاور لصالحه، ونسف المحاور المناوئة حتى ولو بالقبلات ، وخلق محاور جديدة وهى قدرة لم تأت من فراغ وإنما من خبرة طويلة ومتنامية .

فضلا عن هذا كله فإن علاقات عرفات العربية تنامت على مدى أربعين عاماً من درجات بدأت على بعض المحاور بالتجاهل التام ووصلت إلى المعاملة من خلال البروتوكول إلى مستوى رئيس الدولة حتى من قبل أن يصبح عرفات رئيسا للسلطة، وعلى محاور أخرى بدأت صورته الغربية بتوصيفه إرهابيا وانتهت بمنحة جائزة نوبل للسلام ، وعلى محور ثالث وصلت فى بعض المراحل إلى منعه من دخول الولايات المتحدة الأمريكية، ثم وصلت إلى استقباله هو نفسه فى البيت الأبيض ..

عرفات فى البداية والنهاية تاريخ له بداية .. وليس له نهاية ..

أما الآخرون فستكون لهم بداية بطيئة ونهاية سريعة.

4

الفلسطينيون فى حاجة
إلى
إستراتيجيات جديدة

- الفلسطينيون يمارسون سياسة البامبو
- فى تحية عزمى بشارة
- هل آن الأوان لتشجيع عودة اليهود العرب من إسرائيل إلى أوطانهم العربية؟



فلسطينيو الداخل والحاجة إلى زعيم

لو كان التاريخ رجلاً لما كفّ عن التفكير فى أهمية وجود زعيم للفلسطينيين العرب الذين بقوا على أرض فلسطين ولم يغادروها فى ١٩٤٨ ولا فيما بعدها، زعيم لا ينكر مدى ما للسلطة الإسرائيلية من قوة، ولا من سطوة، لكنه يبحث فى الوقت ذاته عن حقوق مواطنيه تجاه هذه السلطة وهذه السطوة، وهى حقوق مدنية وإنسانية فى المقام الأول.. والأخير أيضا.

لست أحب أن أصور الأمور بطريقة التشبيه والتمثيل، فأدعو إلى وجود زعيم مواز أو مناظر لزعماء الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة الأمريكية الذين يتبنون قضايا مواطنيهم السود، ويحرصون على تحقيق أكبر قدر من المساواة بينهم وبين مواطنيهم البيض، وهى الدعوة التى أثمرت ـ ولا تزال تثمر ـ مزيدا من النجاح السياسى والإنسانى فى ذات الوقت.

كما أننى لا أتجاوز حدود التشبيه إذا قلت إن الفلسطينيين القابضين على أرضهم منذ أكثر من نصف قرن من الزمان فى حاجة إلى زعيم من طراز نيلسون مانديلا

يبقى حتى وهو فى السجن رمزا لرغبة شعبه فى التحرر، ويصمد مستنداً إلى، رغبته ورهبته، حتى ينال شعبه مع الزمن ومع الكفاح الدءوب حقوقه فى حكم نفسه على أرضه حتى بعد استمراء المستعمرين الوافدين للاستحواذ على خيرات الأرض والاستئثار بسلطة حكم أهلها.

ولا يقولن قائل إن الظروف الحالية للعرب الباقين تحت الحكم الإسرائيلى مختلفة عن ظروف السود فى أمريكا أو فى جنوب إفريقيا، بل إن الاختلاف فى هذه الظروف يصب فى مصلحة الفلسطينيين من نواح كثيرة:

(١) فلم يقدر لقضية استقلال أن تشغل بال العالم على النحو الذى قُدر للقضية الفلسطينية التى امتدت تفصيلاتها على مدى أكثر من نصف قرن، وكان من حُسن حظ أصحاب هذه القضية أن تساقطت على الزمن ـ بل تلاشت تباعا ـ كل الذرائع والدوافع والحجج التى يتذرع بها أعداؤهم، فقد جاءت الثورة الإعلامية لتكشف مدى جنون آلة الحرب الإسرائيلية، ولتكشف أيضا عن مدى عجز هذه الآلة عن تحقيق أى نوع من السيطرة على الأوضاع أو أية حماية كاملة لأبناء الدولة التى وُلدت على أرض الغير فى ظروف شبه استثنائية، وقد أصبحت (الظروف ومن ثم الدولة) بحكم المنطق العلمى والبيولوجى لحركة التاريخ، أقرب إلى الزوال منها إلى الاستمرار.

❑

(٢) لم يقدر لقضية دولية مثل هذا القدر من التدخل المتتالى من جانب السلطات الدولية متمثلة فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وعلى سبيل التمثيل وتقريب الصورة فحسب، فقد صدر عن المنظمة الدولية قرار إنشاء الدولتين فى نفس الوقت لأول وآخر مرة فى تاريخ الدول، وعلى الرغم من أن إحدى الدولتين قد قامت بالفعل إلا أن الدولة الأخرى لم تقم حتى الآن، وليس من المقبول فى أدبيات القانون ولا القضاء ولا التحكيم (حتى وإن كان التحكيم عرفيا) أن يستفيد أحد الطرفين من الحكم ، وتمنع

الاستفادة عن الطرف الآخر حتى وإن أبدى الطرف الآخر كل اعتراضاته وصرخاته بجور الحكم الصادر.

لعلى أزيد هذا المعنى إيضاحاً فأقول: **إن أحداً مهما كان لا يملك أن يعاقب من لم يقتنع بعدالة حكم المحكمة.**

وعلى المجتمع الذى تنتمى إليه المحكمة أن يمضى حكمها على النحو الذى أصدرته دون أن يطلب من الطرف «**المتذمر**» أن يتولى بنفسه الحصول على ما حصل عليه الطرف «**المتلمظ**» بالقضية.

ومبلغ علمى أن الأمر فى القضية الفلسطينية لا يعدو هذا التصوير فى كثير أو قليل.

❑

(٣) تقدم إسرائيل نفسها على أنها مجتمع ديمقراطى ينتصر لأغلبية الأصوات ولأقليتها فى ذات الوقت، وتحظى الأقليات المختلفة فيه بحقوقها الإنسانية والمدنية على نحو ما تحظى بها «الأقليات» فى جميع أنحاء العالم، ومع أن العرب الذين بقوا فى فلسطين ليسوا أقلية بالمنطق العددى، فضلاً عن أنهم يتمتعون عن نظرائهم من اليهود بمجموعة من قيم الأفضلية فيما يتعلق بعلاقة الشعب بالأرض، فكل هؤلاء العرب الذين بقوا على أرض فلسطين يمتدون بجذورهم المرتبطة بهذه الأرض إلى أجيال سحيقة لا يعرفون لها بداية ولا نهاية، كما أن هؤلاء يرتبطون بوظائف مرتبطة بهذه الأرض ليس آخرها الزراعة ولا الرعى ولا التعمير ولا المسئولية عن خدمة حرم مقدس هنا أو هناك، كما أن مسئوليتهم التاريخية والواقعية عن الموارد الطبيعية وتنظيمها أمر لا يمكن التقليل منه، بل إن هذا التقليل قد يكون ضد مصلحة المجتمع الإسرائيلى نفسه، بل الدولة الإسرائيلية نفسها.

وعلى الرغم من هذه الحقائق الواضحة الناطقة بالصحة والمنطق فإن الحاجة «الإسرائيلية» إلى إظهار البدء من الصفر فى كثير من المشروعات وجدت نفسها

ترتكب الحماقات إذا هى أهملت إفادة المجتمع الإسرائيلى من علاقة السكان القدامى بأرضهم ومواردها الطبيعية.

❑

على أننا، من ناحية أخرى ، لا نستطيع أن نتصور حدوداً مرسومة أو إطاراً حديدياً صلباً لهذه الزعامة، كما أننا لا نستطيع فى المقابل أن نعتمد اعتماداً كبيراً على «المصادفة» أو «الإلهام» فى وجودها، ومن ناحية ثالثة فإنه لا يمكن لنا أن ننتظر «الميلاد الطبيعى» أو «الرغبة الشخصية» فى تقمص دور مثل هذه الزعامة.. وكل هذا آت ولاريب فى إتيانه، لكن الظروف الساخنة تستدعى توليداً صناعياً لزعامة «أولى» أو «مبدئية» لا تمانع فى وجود زعامات طبيعية تالية.

❑

كأنى أريد أن أقول إن من واجبنا [فى العالم العربى والإسلامى] أن نساعد مثل هذه الزعامة على الظهور بجراحة قيصرية، أى بكل ما يمكن لنا من مساعدة، بل بكل ما لا يمكن لنا من مساعدة، أقصد بهذا أن نحاول أن نخلق كل الظروف - غير الموجودة - الكفيلة بأن تكون مواتية فى مساعدة مثل هذه الزعامة على أداء دورها فى خدمة الحق الفلسطينى.

ولست أحب أن أقفز ولا أن أفصل القول فى وصف الزعامة المطلوبة وتوصيفها، ولكنى لا أستطيع أن أتجاوز الحديث عن بعض الأطر الكفيلة بتوصيف ووصف ظروف هذه الزعامة، وفى هذا الصدد فإن هناك عددا من الحقائق الأساسية التى تعلمناها من دروس التاريخ وحركات التحرر والاستقلال:

(١) لابد أن نفهم أن هذه الزعامة ليست بديلاً عن الزعامة الفلسطينية المعترف بها الآن على أوسع نطاق متمثلة فى منظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، لكنها زعامة مكملة حتى وإن لم

يطلب منها التعاون الكامل أو الانضواء التام للمنظمة، وذلك من أجل تحقيق المصلحة النهائية.

(٢) لابد من إضفاء الطابع المؤسسى على هذه الزعامة، ويرتبط بهذا المعنى أهمية أو فاعلية إضفاء «الزعامة المطلوبة» على مجموعة قائمة بالفعل، وليس على شخص منفرد أو صاحب دعوة فحسب.

(٣) لابد من أن يتحقق لهذه الزعامات قدر كبير من القبول (المبدئى) الوطنى والشعبى الفلسطينى، ونحن لا نطلب أن يصل هذا القبول إلى درجة الإجماع ولا إلى درجة الأغلبية الساحقة، ولا حتى إلى درجة الأغلبية النسبية، لكننا نطلب القدر الكافى من القبول الوطنى للشخص ولتاريخه.

(٤) مع إيماننا بضرورة توافر القدرة على التواصل مع المجتمعات الأمريكية والأوروبية (والخارجية على وجه العموم) فلابد - على الطرف الآخر - من أن تتمتع الزعامة «المطلوبة» بالتفوق الساحق فى القدرة على الحوار مع الإسرائيليين بنفس اللغة التى يتحاور بها هؤلاء الإسرائيليون مع المجتمعات الدولية حتى يدرك هؤلاء أن عليهم أن يحسبوا حسابا لهذا «الطرف الآخر» الذى غُلب على أمره، وغُيب عن ساحته، وأستلب حقه طوال خمسة عقود من الزمان.

(٥) لابد أن ننجو بالزعامة المطلوبة من أصداء الخلافات العربية التى تنتقل بحكم العلاقة بهذا النظام أو ذاك، وكفانا ما جرّته العقود السابقة من مصائب وكوارث فى هذا الصدد، فإذا كان لابد من تعاون أو قبول لدعم مادى أو أدبى، فليكن هذا من خلال صندوق غير سياسى وغير مسيس فى الوقت ذاته، حتى وإن كان هذا الصندوق بيروقراطيا بحتا، وحتى لو أشركت فيه قوى غير عربية من القوى التى عرفت بتعاطفها التام مع الحقوق المسلوبة للشعب الفلسطينى، وهى قوى كثيرة ومتعددة ومخلصة وثابتة على الولاء.

(٦) وأخيرا فإن الحظ ربما يواتينا لو أن هذه الزعامة كانت قد حصلت من قبل على ثقة (أو اعتراف) المجتمع الإسرائيلى نفسه، سواء تحققت هذه الثقة (أو الاعتراف) بأن فازت بمقعد فى البرلمان أم بموقع فى السلطة السياسية والإدارية، ولا يعجبن أحد من مثل هذه الفكرة فقد كان عرابى نفسه قائدا مبرزا فى جيش الخديو، وكان مصطفى كامل صحفيا وصفيا من أصفياء الخديو، كما كان سعد زغلول وزيرا فى ظل الاحتلال.

فى تحية عزمى بشارة

تتمثل فى عزمى بشارة مجموعة من القيم الوطنية والسياسية الرفيعة التى يندر اجتماعها فى عصر العولمة ، فهو مواطن عربى حر، فى وطن فرض عليه الاحتلال منذ خمسين عاماً وعانى، شأنه فى هذا شأن مواطنيه، تعسف هذا الاحتلال وجوره وظلمه وعنته وتعنته، لكن هذا لم يمنعه من أن يصمد فى وجه سلطان هذا الاحتلال وسلطته وقسوته، بل تمسك بكل حقوق المواطنة سواء تلك التى تتعلق بانتمائه ومسقط رأسه أم تلك التى تتعلق بحقوقه كإنسان يقيم على أرض تتعرض لسطوة حكم من نوع خاص يحاول أن يفرض أمراً واقعاً يحيل أصحاب الأرض مع الزمن إلى لاجئين أو مهجرين أومشردين .

وفى مواجهة كل هذا كان عزمى بشارة على رأس الذين انتبهوا بذكاء نادر إلى أفضل الأساليب التى تمكنهم من تأسيس شرعية دولية وإنسانية مطلقة فى كفاحهم من أجل الحصول على حقوقهم المشروعة بما فيها الحفاظ على أرضهم وهويتهم وذاتهم، ولم يقف عزمى بشارة عند هذا الحد من التفكير والاقتناع والممارسة، لكن جسارته

الفكرية والمعنوية والمادية هيأت له أن يمضى فى خطواته الناجحة إلى أبعد مدى فى تصوير نفسه والتعبير عن حقوقه ، وهكذا أصبح عزمى بشارة رمزاً لطراز نادر من كفاح ذكى يستند من ناحية إلى ذكاء مبدع فى التعامل مع الواقع القاسى ، ومن ناحية أخرى إلى إيمان مطلق بأن الحق عائد إلى أصحابه، وبأنه قبل غيره أولى من المحتل بأن يدير أمور السياسة والإدارة على أرض الوطن السليب.

❑

ولولا أننا نعطى للأدبيات الكلاسيكية دورها فى صياغة أحكامنا على السلوك السياسى لاكتشفنا مدى التفوق الفكرى والعقلى الساحق الذى أحرزه عزمى بشارة بسلوكه الجسور من داخل فلسطين فى مواجهة إسرائيل، فهو يصل إلى عضوية البرلمان الإسرائيلى العنصرى نفسه بفضل أصوات مؤيديه فى نظام لايمكن القول بأنه يحابيه أو يضيف إليه أصواتا أو يرحب بوجوده ..ثم إنه فى خطوة تالية يطرح نفسه زعيما ورئيسا ورجل دولة بديلاً لأقطاب عصابات الصهاينة ليقول للعالم أجمع بمن فيه من يهود وصهاينة وأعداء للعرب إنه فى هذه الارض السليبة زعماء عرب يستحقون أن يحكموها من خلال الديمقراطية بأفضل وأولى من هؤلاء الوافدين من بقاع مختلفة من العالم ...ثم إنه مع هذا وذاك لايبشر بالدولة التى نجح فى الوصول إلى برلمانها ، ولايعمل لحسابها، ولايعطيها مشروعية من أى نوع، ولاثقة من أية درجة ، لكنه يكاد يصل بجهاد شديد إلى مالم يصل إليه السلاح من نتائج، وإلى مالم تصل إليه الدبلوماسية حتى الآن من توفيقات أو معادلات .

ولو أن بعض الأنظمة العربية كانت تتمتع بما تمتع به عزمى بشارة من فهم وذكاء وجسارة لجعلت من موقفه أكثر المواقف ربحية فى الصراع ولاتخذت من موقعه (الذى جاهد حتى حصل عليه) فرصة لكى تعيد الحقوق التاريخية لشعب فلسطين فى حكم نفسه بنفسه وليجلو أرباب العصابات عن أرض اغتصبوها وزرعوا فيها مَنْ سيجلون وراءهم ، لكن بعض العرب ابتلوا ـ ولله الأمر من قبل ومن بعد ـ

بمن غفلوا عن فعالية الخط الناجح من التعامل الذكى والمثمر مع الأزمة، ومن ثم أصبح الصواب صوتاً وحيداً فى عزفه ، بينما الأصوات تتعالى بما هو أقل صوابا.... ولنذكر على سبيل المثال ما كان بعض المتحمسين يظنونه من أنه لابد من فقدان العواصم العربية وسقوطها حتى تتحرك الأمة العربية للقضاء على الصهاينة ... وقد تردد هذا التفكير المؤسف لفترة من الزمن الماضى فى الستينيات الحافلة بالأخطاء. بل تبناه مسئولون حزبيون ورجال دولة...

❑

فى المقابل فإن عزمى بشارة يحتفظ بأرضه وبوجوده فى الأرض التى ترتفع عليها أعلام العدو بل يصمم على الحصول على كل ما يؤهله له هذا البقاء من حقوق إنسانية وسياسية وشرعية وبرلمانية وينجح فى أن يتحول إلى رمز تتجمع حوله أفئدة أمثاله من مواطنين مخلصين عزّ عليهم أن يتركوا وطنهم السليب على الرغم من قسوة الاحتلال ومذابحه ، وهدتهم بصيرتهم المشرقة والنافذة إلى أن الاستمساك بالأرض فى ظل حكم جائر أهون على النفس من التفريط فيها حتى وإن كان هذا أصعب على البدن ، وإلى أن البقاء فى الموطن أفضل على كل حال من هجرانه ، وإلى أن تحمل ظلم العدو أهون على النفس من تحمل ظلم ذوى القربى .

هل آن الأوان لتشجيع عودة اليهود العرب من إسرائيل إلى أوطانهم العربية؟

ربما بدا هذا السؤال صعبا بعض الشيء، وربما بدا غير متوقع، غير أنى أظن أن الإجابة عنه تمثل عنصرا مهما من عناصر الفعل والتفاعل السياسى والإستراتيجى المساندة للحق العربى فى الصراع العربى - الإسرائيلى.

بادئ ذى بدء لابد أن نكون من الذين يدركون حجم الأخطاء الإستراتيجية التى وقعت كثير من قيادات الأمة العربية فيها فى صراعها مع العدو الإسرائيلى طوال السنوات الخمسين الماضية.

وثانيا لابد أن نكون متمتعين بالشجاعة التى تمكننا من مواجهة هذه الأخطاء والعمل على محو آثارها بإجراءات عملية وقرارات ذكية تنسف دعاوى العدو الإسرائيلى الذى يتمتع بخطط طويلة الأجل قادرة على إقناع العالم بصواب وجهة نظره ومشروعية ادعاءاته.

ولابد بالإضافة إلى هذا وذلك من أن نكون متمتعين بقدر معقول من نفاذ البصيرة

الكفيل باختراق حجب الحاضر للوصول إلى أوضاع جديدة نخلقها ونوجدها لتساعدنا على قلب المائدة على إسرائيل ومن يساندونها بالباطل.

ولست أنكر مدى الدور الذى لعبته الحماسة فيما مضى من التاريخ فى دفع كثير من قادة الدول العربية إلى التورط فى التصريح لليهود العرب بالهجرة إلى إسرائيل، بل إن هذه الحماسة قد تطورت - فى بعض الأحيان - لتدفع بهؤلاء إلى هذه الهجرة فى صورة كان من السهل على الدعاية الإسرائيلية أن تصورها ببراعة فى صورة أقرب ما تكون إلى الطرد.

وعلى الرغم من إيمانى بأن القيادات السياسية على مستوى القمة لم تكن الداعية إلى مثل هذا التصرف، إلا أننى لا أستطيع أن أتجاهل حقيقة أن روح الحماسة والتحميس كانت كفيلة بأن تمضى الأمور فى طريقها الذى مضت فيه على نحو ما حدث فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦.

❑

وعلى نحو ما هو متوقع فإن الزعامات العربية المتعقلة والمحافظة كانت أبعد نظرا ولم تترك الرياح تدفعها إلى السماح المطلق بهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، وإلى ترك الأمور لسياسات أقرب إلى العرض والطلب، بل كانت هذه الزعامات حريصة على بذل الجهد من أجل استبقاء مواطنيها فى مواطنهم الأصلية،وتجنيب هؤلاء كل المنغصات التى قد توجد لهم المبرر للهجرة إلى إسرائيل.

على كل الأحوال دار الزمن دورته وأتيح لهؤلاء اليهود العرب الذين هاجروا إلى إسرائيل أن يتأملوا أحوالهم بعد هذه السنوات التى قضوها على ما سمى بالنسبة لهم «أرض الميعاد»، وقد أصبح بوسع هؤلاء أن يتأملوا الفارق بين حالين أو وضعين عايشوهما على مدى السنوات الماضية، وظنى - وربما أكون مخطئا - أن كفة الوجود فى المجتمعات العربية سوف تربح وترجح عند هؤلاء اليهود لأسباب متعددة وغير خافية على أحد:

(١) فحب الوطن غريزة سابقة على كل الغرائز الأخرى، وبخاصة إذا كان المنتمى إلى الوطن شرقيا من المفعمين بهذه المشاعر.

(٢) تمتع هؤلاء اليهود فى البلاد العربية والمجتمع الإسلامى بوضع مميز جدا على المستوى المادى والاجتماعى، وحظوا بمزايا عديدة، ونظر إليهم على تعاقب الأجيال نظرة تبجيل وتقدير، وقد حرص معظم هؤلاء على الحفاظ على مثل هذه الحقوق المكتسبة بأن كانوا فى أغلب الأحوال أهلا لها.

(٣) استندت المعاملة المدنية والسياسية لليهود إلى الشريعة الإسلامية التى كانت خبرة اليهود بحسن معاملتها قد ترسخت وتأكدت على مدى حكم دول الإسلام المتتالية، واليهود أنفسهم يذكرون المعاملة المتميزة التى حظوا بها فى ظل حكم الدولة العثمانية، كما يذكرون أن وثيقة تسليم الأندلس للأسبان قد شملت نصوصا نموذجية فى حماية اليهود حرص عبد الله الصغير بنفسه على تضمينها فى المعاهدة.

(٤) على النقيض من هذا فإن إسرائيل رغم كل الدعايات مجتمع عنصرى كامل العنصرية، والتفرقة فيه لا تقوم بين اليهود وغيرهم فحسب، بل بين طوائف اليهود المختلفة، واليهود الشرقيون فى جميع الأحوال أقل شأنا من الغربيين، وأقل حظوة فيما يتعلق بحقوقهم وامتيازاتهم ومشاركاتهم السياسية.

(٥) لم يفلح المجتمع الصناعى الإسرائيلى فى تهيئة المناخ الشرقى أو الرومانسى لهؤلاء المهاجرين الذين خرجوا من واقع متميز [ثقافة وفنا وذاتا] إلى الذوبان فى مجتمع ليس له، حتى الآن، طابع حضارى أو خصائص محددة.

وهكذا وجد هؤلاء أن الهجرة لم تكن إلى جنة موعودة، ولا حتى إلى جنة معقولة، كما أنهم بكل مهارتهم لم يتمكنوا من أن يضفوا على الموطن الجديد أى قدر مما كان فى وسعهم أن يضفوه على موطنهم القديم، أو على مواقع الهجرة النموذجية فى نيويورك أو كاليفورنيا.

(٦) ظل التوتر الحربى والعسكرى والأمنى بمثابة الطابع المسيطر على المجتمع الإسرائيلى الذى خاض حروبا شرسة ومتواصلة منذ نشأة دولة إسرائيل وحتى الآن، وليس سراً أن إنسانا طبيعيا كائنا مَنْ كان لا يمكن أن يسعد بالبقاء فى دولة هى فى الوقت ذاته جيش احتياط، أو بالمعيشة على أرض هى على الدوام مستهدفة لهجوم مَنْ يعتقدون بكل اليقين أن عليهم إجلاء هؤلاء المغتصبين.

(٧) لم تفلح أى حكومة إسرائيلية حتى الآن أن توحى إلى الشعب اليهودى فى إسرائيل بأن عصرا من السلام المدنى سيظلل ربوع المناطق التى قامت فيها الدولة، ولا يخفى على أحد أن منظر ومظهر الترسانة الحربية فى شوارع كل المدن كفيل بأن يجعل كل مهاجر يفكر بالليل والنهار فى مدى صواب قراره.

(٨) لا يخلو الأمر بالطبع من مقارنة يعقدها هؤلاء اليهود العرب الذين هاجروا بين حالهم وبين حال أقربائهم أو جيرانهم الذين بقوا فى مواطنهم الأصلية، وهم يجدون نتيجة المقارنة فى غير صالح البقاء فى إسرائيل، ومن ثم فإنهم على الأقل يعيدون التفكير فى قرارهم القديم، وربما لو أن الفرصة متاحة لهم للاختيار بين البقاء فى إسرائيل والعودة إلى المواطن العربية لفضلوا العودة.

❑

وليس أدل على هذا الذى أصوره مما نشرته «الوسط» فى صيف ٢٠٠٢ من حديث وذكريات المطربة المغربية الأصل مايا كازابياناكا التى تعيش - الآن - فى حيفا، والتى صرحت بكل وضوح برغبتها فى العودة إلى المعيشة فى بيروت ، بل أكثر من هذا فقد وصفت معيشتها الحالية فى حيفا بالجفاف الشديد رغم كل ما تعيش فيه من أبهة ورفاهية، بل إنها، وربما لا نوافقها تماما فى هذه الجزئية ، وصفت هجرتها إلى إسرائيل بأنها تمت من خلال كمين نصب لها حين دعيت فى أثناء رحلة غنائية فى موسكو إلى غناء النشيد الوطنى الإسرائيلى، ومن ثم فإنها عاشت فى رعب العودة إلى العالم العربى الذى استقبلها من قبل بتكريم وحفاوة فى عدد من العواصم العربية،

وهى تقول إنها بعد هذه السنوات الطويلة تعيش فى مدينة حيفا فى حى عربى قديم لم تهدمه السلطات الإسرائيلية ، بل لايزال يحافظ على طابع البيوت العربية ، ومعظم جيرانها من العرب الذين يكنون لها حبا كبيراً كما تقول ، وهى تعيش فى بيت رحب من ثمانى غرف صممته حسب الديكور العربى وزينت جدرانه بصورها مع فريد الأطرش ... وتؤكد مايا كل هذه المعانى قائلة:

«قلة من أصدقائى يهود ومعظمهم عرب ، فأنا أرتاح لهم وأشعر بأنهم أهلى وبيتى ولاأتردد فى إظهار مشاعرى هذه على رغم من كل ما أواجهه من انتقادات من اليهود . فإذا ما التقيت بعضهم بعد عملية انتحارية مثلا ، ينظرون إلىّ بغضب ويقولون : اذهبى الى لبنان، ألا تعشقيهم ها هم مَنْ تعشقينهم ، العرب ، انظرى ماذا يفعلون لكننى من جهتى لا أعير هذا الحديث أى اهتمام، أنا انسانة وفنانة وأؤمن بأن الفن لايفرق بين الشعوب».

وكما قالت الفنانة اليهودية لـ « الوسط» أيضا :

« ما يؤلمنى أننى أجد نفسى فى إسرائيل غير قادرة على تقديم فنى الذى عشقته سنوات طويلة وشعرت بأننى أعيش من أجله، هنا أشعر بقيود كثيرة... فكرت كثيرا أن أعود إلى فرنسا ، لكن لمن أغنى هناك فى مثل هذه الظروف القاسية مَنْ من العرب سيسمعنى؟ ربما أجد جالية هنا وهناك وأنجح فى حفلاتى ولكنى أحب أن أعود وأغنى لجمهورى الذى أحبنى وأحببته فى لبنان وسوريا».

5

حتى نفهم الموقف الأمريكى

- الموقف الأمريكى بين إدارتين
- أيهما أكثر استفادة من الآخر: أمريكا أم إسرائيل؟
- الإدارة الأمريكية الحالية ..
  لا هى ذكية .. ولا هى غبية

يتعجب الناس من موقف إدارة الرئيس بوش من الفلسطينيين وليس لهم أن يتعجبوا، كما يتعجبون من عدم رغبة الولايات المتحدة الأمريكية نفى العجز عن نفسها بينما الحقيقة هى أن الولايات المتحدة نفسها تعيش أسوأ مرحلة فى تاريخها، فالإدارة الأمريكية لأول مرة على مدى التاريخ الأمريكى كله تتمتع بمقومين خطيرين من مقومات الفشل الأكيد، فهى إدارة متكاسلة من ناحية، وفاقدة للرؤية من ناحية أخرى.

وقد كنا نعجب من كلينتون وقدراته المحدودة إذا ما قورنت بسلفه بوش الكبير، ولكن كلينتون وإدارته عوضا ضعف الرؤية وقلة الخبرة بحركة دائبة لم تهدأ طوال الليل والنهار حتى فاقت خبرة كلينتون وإدارته كل ما هو متوقع وأصبحت خبرته بالمشكلات المتعددة تفوق خبرة أساتذة التشريح، لأنها خبرة الجراح الذى استكشف الموقع على الطبيعة مئات المرات. وكلنا يتذكر تحركات كلينتون الدائبة والمتعددة والمرهقة، كما أننا كنا لا نكاد نرى وزيرة الخارجية أولبرايت فى عاصمة حتى نراها

فى نشرة الأخبار التالية فى عاصمة دولة أخرى تبعد عن الأولى آلاف الأميال، وكذلك كان سلفها كريستوفر وزير الخارجية فى فترة كلينتون الأولى قريبا منها فى هذا النشاط المفرط والمتابعة الدءوب.

أما الآن فإننا نرى أقطاب الإدارة الأمريكية فى الصور المنشورة وقد فرغوا لتوهم من التثاؤب الذى يسبق النوم، أو التثاؤب الآخر الذى يعبر به الجسم عن الرغبة فى العودة إلى النوم، ولا نكاد نرى حركة إلا بعد فوات الأوان وبدون نتيجة.

وفضلاً عن هذا وذاك فإن الرئيس الأمريكى نفسه لا يزال يفتقد فى تطوير أفكاره وتعاقبها إلى المنطق الذى لابد له منه حتى يبدو فى صورة متماسكة أمام نفسه على الأقل، لكنه أشبه ما يكون بمن لا يزال يدور حول الأحداث فى حلقات أرضية دون أن يصعد بالخيال ليرى الأحداث بنظرة الطائر المطل على البانوراما كلها، ولهذا فإن خلفياته عن الأحداث تبدو كخلفيات متكونة من الانطباعات التى تركتها مشاهد الصور المتفرقة دون أن يشاهد الفيلم أو المسرحية كاملة، ومن ثم تبدو قراراته وتوجهاته متناقضة، لأنها تفتقد إلى الروح الرابطة بين الأمور فى نسيج واحد، ولهذا يتلمس المدافعون عنه ومن يريدون إبرازه فى صورة حسنة بعض العبارات من هنا وهناك كى يعثروا له على موقف يمكن القول بأنه واضح جدا.

وصحيح أن أداء الرئيس الأمريكى وإدارته لم يصل فى تدنيه وسوء نتائجه وخبثه وكراهيته لبعض الآخرين إلى ما وصل إليه الرئيس جونسون، لكنه فى الوقت ذاته لم يصل فى نجاحه إلى أى قدر مما حققه الرؤساء الذين عاشرهم الجيل الحالى، سواء فى ذلك كنيدى ونيكسون وريجان وبوش الأب وكارتر وفورد.

ولولا أن الإدارة الأمريكية فى مستواها المتوسط قد وصلت إلى مرحلة متقدمة جداً من مراجعة الآليات وتوجيه السياسات وضبط التصرفات لقاد هذا الرئيس بلاده إلى مواقف متسمة بالنزق والرعونة يندى لها الجبين، وتنسحق فيها الروح الأمريكية حتى توشك أن تتلاشى.

أيهما أكثر استفادة من الآخر: أمريكا أم إسرائيل؟

فى نظر البعض (من العرب) يبدو هذا السؤال ساذجاً، وفى نظر البعض الآخر يبدو السؤال مغلوطاً، إذ أن هناك شبه إجماع، بل شبه اعتقاد فى أن إسرائيل تستفيد من أمريكا بأكثر مما يستفيد أى شعب من شعب آخر، وبأكثر مما تستفيد أية دولة من دولة أخرى، والدلائل على هذا كثيرة وكثيرة جدا ولا تحتاج - فى نظر مَنْ يعتقدون هذا الاعتقاد - إلى كثير من تعداد الأمثلة ولا البرهنة.

ولكنى أعتقد اعتقاداً راسخاً (وله ما يبرره بالطبع) فى أن الولايات المتحدة الأمريكية تستفيد من إسرائيل بأضعاف ما تستفيد إسرائيل من الولايات المتحدة الأمريكية، بل يصل اعتقادى فى هذا الصدد إلى حد يبدو لبعض الناس معه أنى فقدت عقلى، لكننى مع هذا لا أزال على عقيدتى التى ناقشت فيها عشرات من زملائى وأصدقائى على مدى السنوات العشر الأخيرة منذ كونت هذه العقيدة من واقع معايشة للعقلية الأمريكية وللحياة الأمريكية كذلك.

ولعلى أبدأ الحديث فى تلخيص هذه الفكرة بأن أذكّر القارئ أنه حتى ١١ سبتمبر لم يكن العنف يتوجه إلى المجتمع الأمريكى، بينما كان هذا العنف يتوجه إلى بعض أفراد من المجتمع الإسرائيلى، ومع أن هؤلاء كانوا قليلين إذا ما قورنوا بالآلاف والملايين من العرب المشردين على يد الصهاينة، إلا أننا مع هذا لا نستطيع أن نزعم أن الإسرائيليين فى مجملهم كانوا يعيشون حياة آمنة، بل على العكس فإننا نعرف أنهم يعيشون حياة قلقة بالليل والنهار، ونحن نعرف ونؤمن ونوقن بأنهم يستحقون هذا القلق وما هو أكثر منه جزاء وفاقاً لتعديهم على حقوق غيرهم ولاغتصابهم أوطان غيرهم، لكننا لابد أن نذكر فى الوقت ذاته أن الذين دفعوهم إلى هذا الاغتصاب والاعتداء كانوا ولا يزالون ينعمون بالهدوء فى جنات الله فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وأرجو القارئ أن ينظر معى إلى المسألة كلها من وجهة نظر ربما تبدو متعسفة فى اختزالها القضية إلى جوهرها المادى البحت وهو محاولة البحث عن سكن لعائلة مشتتة.. لكنها تملك المال والنفوذ والقدرة.. أفكان الأولى لهذه العائلة أن تسكن فى بيت من البيوت الفاخرة فى الحى الراقى فى المجتمع الغنى، أم أن تُدفع دفعا وتُزج زجاً بدعاوى دينية إلى أن تغتصب شقة صغيرة مسكونة بالفعل فى حى فقير!!

هذا هو تقريبا خلاصة ما حدث للصهاينة أو اليهود أو الإسرائيليين الذين دفعوا إلى أرض فلسطين ليصبحوا بمثابة خميرة العكننة لمنطقة واعدة إلى حد ما بالخير والثروات الطبيعية، فضلاً عن الموقع المتميز والتاريخ الممتد والطبيعة السمحة لأهلها، وتماسك حدودهم وتوحد لغتهم ودينهم.

❑

مَنْ هو المستفيد من زرع عائلة مجمعة من الإرهابيين فى وسط مجتمع متآلف من الأقارب والأصهار؟! لاشك أن هذا المستفيد هو مَنْ ساعد هؤلاء على الانزراع، أو مَنْ زرعهم، ولاشك أن مدى استفادته من هذا الوضع هى التى تحدد استمرار دعمه لهذا الوضع الشاذ.

ومن العجيب أن كثيرا من ذوى القلوب الطيبة من العرب لا يزالون يؤملون فى أمريكا الخير، ويظنون أنها مخدوعة فى إسرائيل، ويظنون أن فى وسع أمريكا أن تقف إلى جوار الحق أو العدل على نحو ما يتصورون الحق والعدل والخير والجمال فى مخيلتهم، بينما الحقيقة الناصعة تقول بصوت عالٍ: إن أمريكا هى أكثر الناس استفادة من وجود خميرة العكننة الإسرائيلية فى قلب المجتمع الإسلامى، ولا نقول فى قلب المجتمع العربى فحسب.

❑

إن رؤية شارون لعلاقة الإسرائيليين بالولايات المتحدة كفيلة بأن تطلعنا على أحد الأسرار التى ينبغى الإلمام بها فى صياغة علاقات أمريكية - عربية بديلة تكون من الذكاء والإقناع بحيث تكفل طمأنة الأمريكيين إلى جدوى حقيقة مهمة، وهى أن صداقة العرب القائمة على التفاهم وحسن العلاقات أشد نفعا للأمريكيين من توظيف الإسرائيليين للتآمر على العرب يوما بعد يوم، ولاستنزاف قواهم.

إن نصوص شارون وحدها كفيلة بإطلاع الأمريكيين على غطرسة القوة التى يمارسها تابع شرير يحقق بعض المصالح لأمريكا، لكنه يزرع لها كراهية لن تقدر على التصدى لها فى الحاضر القريب.

وها هو شارون يقول فى مذكراته:

«وفى أثناء مفاوضات جنيف الهادفة إلى عقد اتفاق مرحلى حول انسحاب القوات، لم أوافق حين عرض حزب العمل موقفه على أنه الحل الوحيد الممكن، فمن جهتى كنت مقتنعا بقدرة إسرائيل على أخذ ما يفوق منالها، ولم أتمكن من تصديق أذنى عندما سمعت زعماء الحزب - وهو المسئول عن اندلاع الحرب إلى جانب الدور الذى لعبه فى عدم استعداد إسرائيل لها وفى الأخطاء التى ارتكبتها - يدعون، والجدية سمتهم، بأن هذا الحزب وحده لا غير، قادر على إحلال السلام، وتقول

شعاراتهم السياسية: مَنْ يصوت لحزب العمل يصوت للسلام، أما ذاك الذى يمنح صوته لليكود فهو يدعم معسكر دعاة الحرب».

«فى نظرى - يقول شارون - أخطأ كل من حزب العمل وواشنطن فى جنيف عندما لم يطالبا بمزيد من المكاسب، ما أزال مقتنعا إلى تاريخ هذا اليوم بأن واشنطن كان فى استطاعتها أن تبدو أكثر تطلبا. فى ١٠ أكتوبر وقبل يومين من أول وقف لإطلاق النار، أعلنت الدول العربية حظرا على النفط، كان فى وسع الأمريكيين أن يقولوا حينئذ: «أتريدون مساعدتنا على وقف تقدم القوات الإسرائيلية؟ فليكن ولكن بشرط واحد: لا حظر، أرجوكم»، كان فى استطاعتهم أيضا أن يقولوا فى جنيف: «نستطيع ممارسة ضغوطات لحمل إسرائيل على الانسحاب من الضفة الغربية»، كانت فرصة من ذهب إلى جانب ما كان فى متناول أيديهم من أوراق رابحة، لكنهم لم يعرفوا أو لم يشاءوا لعبها. نصر واحد أحرزه الأمريكيون من هذه العملية هو تعزيز موقفهم فى مصر، كان فى المقدور الحصول على المزيد لو قام تعاون إسرائيلى - أمريكى أكثر متانة، غير أنه لا الأمريكيون ولا الإسرائيليون عرفوا كيف يستغلون الفرصة المتاحة لهم».

❑

ومن العجيب أننا على مدى نصف القرن الأخير لجأنا فى سياساتنا الخارجية إلى تبنى كثير من توجهات انفعالية دون أن ندرى أننا بهذه التوجهات كنا أبعد ما نكون عن المنطق، وأننا بهذه التوجهات خلقنا أوضاعاً أدت مصداقيتنا حتى مع أنفسنا، وانعكست هذه الآثار السلبية على فهمنا لحقيقة العلاقة بين أمريكا وإسرائيل التى ظنناها لابد أن تخضع لأسلوبنا الانفعالى فى معالجة مواقفنا السياسية تجاه المشكلات الدولية المختلفة، وقد قادت هذه التعقيدات مواقف العالم من المشكلة الفلسطينية إلى

مسارات متعارضة لا مع بعضها البعض ولا معنا، لكن مع مصلحة القضية الفلسطينية نفسها.

ولست فى حاجة إلى أن أذكر كثيراً من الأمثلة على تطور نظرتنا الانفعالية وآثارها، ولكنى سأكتفى بذكر أمثلة سريعة تدلنا على مدى تعقيد الموقف الذى خلقناه للقضية الفلسطينية:

(١) لأسباب غير منطقية - وإن بدت ثورية - انحازت مصر فى الستينيات إلى اليونان فى النزاع الناشب بين اليونان وتركيا حول قبرص، ورغم وجود حكومة إسلامية انفصالية فى الجزء الشمالى من قبرص إلا أننا ظللنا نبدى تأييدنا لليونان لعلاقة صداقة (مستحدثة عن قصد) ربطت بين حكومتها وحكومة الثورة المصرية، وكانت النتيجة أن وجدت تركيا نفسها فى حاجة إلى علاقة مع إسرائيل لتكون نافذتها على الولايات المتحدة الأمريكية وعلى السلاح الأمريكى.. وهكذا نمت علاقة تركيا بإسرائيل فى اتجاه عقلانى وعملى ومنطقى دون أن نبذل حتى الآن أى جهد فى سبيل ضبط «التون» أو تحقيق التناغم أو التوازن فى هذه العلاقة!

(٢) لأسباب غير منطقية - وإن بدت ثورية أيضاً - نمت علاقاتنا بالهند، فلما حدثت الحرب الهندية فى بداية السبعينيات وجدنا أنفسنا فى معسكر يضم الهند والسلاح السوفيتى بينما كانت باكستان على الجانب الآخر تطلب دعم الولايات المتحدة الأمريكية، ومع أنها لم تطلب بالطبع دعم إسرائيل إلا أن أحداً لم يكن ليمانع فى أن يعطيها العذر لو فعلت هذا (!!)

(٣) فى ظل طبول «قومية» عزفت فى أثناء حرب الخليج الأولى روجت وسائل الإعلام العربية للحديث عن نوع من التحالف العسكرى بين إسرائيل والثورة الإسلامية فى إيران تمثل فى تسهيل إسرائيل لوصول أسلحة إلى إيران من خلال علم أو تغاضى أو حتى تمويل الولايات المتحدة الأمريكية، وبدا الأمر من ناحية طبيعيا أو منطقياً فى ظل حاجة إيران إلى سلاح تواجه به ترسانة من الأسلحة حصلت عليها

العراق من القوتين العظميين وبأموال العرب كلهم، وبدا الأمر من ناحية أخرى طبيعيا أو كأنه حرب قومية جديدة بين العرب من ناحية، والفرس من ناحية أخرى، بل بدا لبعض الأقلام أن تصور العرب على أنهم مسلمون حقيقيون، وأن تصور الإيرانيين فى المقابل ذوى إسلام غير حقيقى.

ونستغفر الله سبحانه وتعالى لمن تورطوا فى هذا الإثم.

وهكذا صورت إيران متحالفة مع إسرائيل ضد العرب، مع أن هذا كان مخالفاً لما بدا من السياسات الأولى لإيران بعد الثورة الإسلامية.

ومع أننا كنا نعرف تمام المعرفة مدى قوة إيران ومدى حرص حكومتها الإسلامية الجديدة على إثبات نجاحها، إلا أننا ظننا أن الطبل القومى وحده كفيل بتحقيق إنجاز فى هذا المجال، وبدلاً من أن تسعى الدول العربية وبخاصة فى «جبهة التصدى والصمود» للحصول على دعم إيرانى لمواجهة إسرائيل، فإن زعيمة مجموعة التصدى والصمود أبت إلا أن تستنزف قوتها وقوة إيران فى حرب ضروس، وهكذا لم يكن منطقيا أن ترفض إيران الإسلامية أى دعم يأتيها عن طريق إسرائيل إن صح أن هذا قد وقع.

❏

والشاهد أن هذه الأمثلة الثلاثة السريعة، وعندى من مثلها كثير، تنبئنا بكل وضوح عن أن المستفيد من الآخر لا يتحدد بمدى قوة أحد الطرفين، ولا بموضع اليد من الأخرى، **فليس الأصغر أو الأضعف هو المستفيد دائما، وليست اليد السفلى (الآخذة) هى المستفيدة دائما**، بل إنما السياسة التى لا قلب لها كما يقولون تنبئنا بكل وضوح أن **هناك مَنْ يلعب بعض الأدوار للآخرين.**

❏ قد يكون هذا اللعب عن رغبة منه فى تحصيل الأجر، وهذا هو الارتزاق أو الاسترزاق.

- وقد يكون هذا اللعب عن إيمان منه بأن المصالح قد تتلاقى، وأنه يكفيه أن يحقق غايته ولا مانع من أن يكسب آخرون معه، وهذا ـ على سبيل المثال ـ هو فكر بعض المجاهدين الأفغان فى إسقاط الشيوعية والاتحاد السوفيتى.
- وقد يكون هذا اللعب عن إيمان منه بأنه الأذكى بينما هو مسكين ـ مسكين، وهذا هو تفكير كثيرين من شبابنا الأغرار من حسنى النية.
- وقد يكون هذا اللعب صادراً عن ضلال فكرى وزيغ عقيدى يطمس الله به على أفئدة مَنْ يقومون به ويظنون أنفسهم شعب الله المختار، بينما هم أقل خلقه شأنا عنده، وهم يظنون أنفسهم يسخرون مجتمعات كبرى من أجل دعمهم فى وظيفة يظنونها مقدسة، بينما هى مدنسة تماماً.

ومع هذا فإننا ـ كذلك ـ نظن أنهم يستغلون أمريكا لمصلحتهم بينما هم فى حقيقة الأمر يدفعون أمريكا إلى استغلالهم هم أنفسهم لمصلحتها وحدها دون أن يحققوا لأنفسهم إلا مزيدا من القلق والشتات والكراهية!!

❑

ومهما حاول الإسرائيليون تصوير علاقتهم بأمريكا فى صورة تقترب من البدية فإن العقل البشرى المتجرد من التأثر بأهواء الآخرين قادر على أن يكتشف بكل وضوح أن الإسرائيليين ، وبخاصة **الأصوليون المتشددون** منهم، لا يفعلون أكثر من تنفيذ سياسات أمريكية يترك الأمريكيون لهم هامش الحديث عن أسلوبهم فى أدائها فحسب.

وفى وسع الذين يجيدون تحليل النصوص أن يقرأوا هذا المعنى بكل وضوح فى كل ما يكتبه الإسرائيليون وهم بعيدون عن السلطة وفى كل ما يصرحون به وهم فى مواقع المسئولية، وهذه فقرة من مذكرات شارون توحى لنا بكل وضوح بمحاولة هذا السياسى الأرعن وضع نفسه فى موضع الندية للولايات المتحدة الأمريكية دون أن يقدم ما يبرر به أقواله، يقول شارون:

«ولكن ليس من مصلحة أحد ترويج اعتقاد مفاده أن إسرائيل خاضعة خضوعا تاما لواشنطن. على إسرائيل، وخصومها أيضا، أن يعرفوا أننا قادرون على الدفاع عن أنفسنا، وأننا بالتأكيد حليف الولايات المتحدة ولكننا لسنا دولة تدور في فلكها، وأننا حققنا استقلالنا بأنفسنا، أولا بفضل أبنائنا الذين بذلوا دماءهم، وثانيا بفضل التضحيات التي قام بها اليهود في مختلف أرجاء العالم».

على هذا النحو يفكر رجل يعرف جيدا حدوده ولكنه مع هذا يغالط نفسه ويغالط الآخرين ويطلب من بني قومه أن يشاركوه في ترديد هذه المغالطات المكشوفة.

الإدارة الأمريكية الحالية ..
لا هى ذكية..ولا هى غبية

كثيرا ما يدفعنا تقديرنا المتنامى للمؤسسة الأمريكية إلى أن ننأى بها عن العجز وعن الفشل، ونظن بعض خطواتها الخاطئة جزءا من برنامج أو منهج نجاح مخطط له على نحو ما تتراجع المسيرة خطوة لتتقدم خطوات، لكننا سرعان ما نكتشف أن إحسان الظن لم يكن فى محله تماما، وأن الإدارة الأمريكية باعتبارها إدارة بشرية تتعرض هى الأخرى لما تتعرض له كل إدارة بشرية من أخطاء فى التقدير.. وغياب للرؤية.. وضعف فى الأداء.. وتكاسل فى اتخاذ القرار، فضلا عن الخضوع لتأثيرات لا تنتهى من تلك التى تضمن للقراء زخما هائلا من الأخطاء القاتلة.

ويبدو لى أن الإدارة الأمريكية الحالية لن تستطيع الخروج من المأزق الذى وضعت نفسها فيه على مدى الشهور الماضية منذ وقعت أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وما أعقبها، وعلى الرغم من أن هناك نجاحات باهرة قد نسبت إلى هذه الإدارة على جميع الأصعدة، إلا أن عناصر الفشل لا تزال هى الأخرى تحظى ببيئة مواتية وكفيلة بانتعاش هذه العناصر إلى الدرجة التى قد تمكن للفشل من القضاء فى النهاية على كل

النجاحات التى تحققت، وربما يسهل علىّ تصوير الأمر بما يحدث مع الجراح القدير الذى يجرى الجراحة الناجحة بأبدع التكنيكات وأدق الآلات وفى أسرع وقت، ولكنه، فى ظل الإحساس المتنامى بالثقة فى النفس وبالثقة فى النجاح الذى حققه، يهمل عن غير قصد العناية باستخدام المضادات الحيوية الكفيلة بحماية الجرح من التلوث البكتيرى.. وهكذا تكون النتيجة أن تنجح العملية الجراحية تماما ويتم استئصال الورم وكل ما تسبب عنه، لكن المريض نفسه يموت بتلوث بكتيرى نتيجة لإهمال التعقيم فيما بعد العملية الجراحية اكتفاء بما تم من تعقيم صارم قبل إجراء الجراحة.

وهذا هو جوهر مايحدث فيما تسميه أمريكا بحربها على الإرهاب.

❑

على أن الإنصاف يقتضينا الإشارة إلى أن الأسلوب العصرى فى المتابعة والرصد والتحليل يستطيع أن يكفل نجاح الإدارة (أية إدارة) حتى بعد نشوب عملية التلوث البكتيرى وازدهارها، عند ذاك يمكن البدء فى تلافى الأخطاء السابقة ومواجهتها بصرامة، ويظل النجاح مضمونا حتى وإن كان مكلفا، ويبدو أن هذا هو السيناريو المحتمل أيضا فى حالة الإدارة الأمريكية الراهنة بعد مسلسل الأخطاء المتتالية التى سادت رؤيتها وعلاجها للوضع المتفجر فى الشرق الأوسط، فلا يزال الأمل معقودا على رؤية «أجهزة النظام الأمريكى» التى تستطيع أن تكتشف بسهولة خطورة النتائج المترتبة على الأداء المتدنى للإدارة الأمريكية الحالية.

ومن الملاحظ، كما أشرت فى فصل سابق، أن هذه الإدارة لاتزال تفتقد إلى حد بعيد إلى القدرة الفائقة على الحركة التى كانت إدارة الرئيس السابق كلينتون تتميز بها، فلا الرئيس يتحرك بما فيه الكفاية، ولا مساعدوه الرئيسيون يفعلون ذلك، إنما هم يتحركون بحذر وترقب وحساب وبطء، ولا يكفون عن التراجع عن كل نية فى التحرك، وهكذا أصبح حضورهم نفسه مفتقدا على المستوى المادى بنفس القدر الذى هو مفتقد فيه على المستوى المعنوى، وتأتى تصريحات أقطاب هذه الإدارة لتضيف

إلى ضعف الحضور نوعا من الغموض المسيطر على التصريحات وعلى روح التصريحات على حد سوا.

وهكذا لا يمكن لأكثر المراقبين تعاطفا مع الإدارة الأمريكية أن يجد فى تصريحات الرئيس الأمريكى أكثر من ألفاظ عمومية تنطق بانعدام القدرة على الإلمام بالتفصيلات، مع أن التفصيلات المعقدة كفيلة بأن تتيح لأى طرف أن يسترضى أطرافا كثيرة دون أى التزام قانونى تجاه هؤلاء الذين يسترضيهم، كذلك فإن هذه التفصيلات كفيلة أيضا بأن تتيح كثيرا من الفرص لبث الانقسام فى الجبهة المعادية، ولكن الرئيس بوش الذى لم يخرج خارج بلاده إلا قبيل ترشيح نفسه للرئاسة، يجد نفسه عاجزا حتى عن أن يسترضى جموع الملايين من المسلمين والمسيحيين فى العالم بتصريح بسيط يعبر فيه عن إيمان بلاده بأهمية وضرورة حماية الأماكن المقدسة فى القدس وبيت لحم.

وفى المقابل فإن الرئيس بوش يضمن حديثه اعترافا هائلا بقدرة وزعامة عرفات حين ينسب إليه أنه لا يقوم بدوره الكامل فى مكافحة الإرهاب، ومع هذا التقدير الضمنى فإن الرئيس بوش فى عباراته يستنكف أن يصوغ من هذا المعنى عبارات تعلى من شأن الرئيس عرفات من ناحية، وتقود الآخرين إلى الاقتداء به، بل إن خطاب الرئيس الأمريكى يتعمد أن يتجاهل تجارب إنسانية قديمة فى «استئناس **الهدنة**»، وقد رزقت الإنسانية على مدى تاريخها وعيا بضرورة الهدنة حتى فى ظل عنف الحرب، وليس ببعيد أن العرب كانوا يتوقفون عن الحروب فى ٣٣٪ من أيام العام فيما يعرف بالأشهر الحرم الأربعة، كذلك عرفت الحروب المتعددة التى خاضتها البشرية أجازات من الحروب تستجمع بها الأطراف المتحاربة صفوفها وتضمد جرحاها وتعود مرة أخرى إلى الحرب.

ومع أن فى وسع الرئيس الأمريكى أن يتبنى الدعوة إلى مثل هذه الهدنة الموقوتة،

فإنه، فى ظل معاناة الإدارة الأمريكية من سيطرة بعض مَنْ يتمتعون بثقافة محدودة وفهم قاصر للحرب والسياسة، يلجأ إلى أضعف الحيل وهى حيلة إلقاء المسئولية على كاهل زعيم واحد.

بل إن الخطاب الأمريكى فى الأزمة الراهنة قد أهمل تماما الإفادة من وجود هيئة الأمم المتحدة الموصوفة بأنها هيئة أمريكية تابعة، كما أهمل الحديث إلى الحلفاء التقليديين وآثر نوعا من أنواع رد الفعل الرسمى المقتضب والإقبال الحذر على أداء دور غير محدد لهدف غير محدد.

❑

وإذا جاز لنا أن نتبنى رؤية القائلين بحرص الرئيس الأمريكى بوش الابن وإدارته على أمن إسرائيل وحدودها وسيادتها وأرواحها، فإننا لا نستطيع أن نتصور أن الأسلوب الأمريكى فى إدارة الأزمة الحالية يكفل تحقيق هذه الأهداف على أى نحو، فالسخط العالمى يتصاعد، والثقة فى إسرائيل تتضاءل، والإحساس بالأزمة يتضاعف، ومساعى السلام السابقة تتعثر وتكاد تتبخر لتعيد الأمور إلى أجواء سابقة على أزمة ١٩٤٨ أو على أزمة ١٩٦٧، ومن سوء حظ إسرائيل أن القوى العربية الحقيقية، وكذلك القوى الإسلامية المؤثرة تتمتع بقدرة فائقة على ضبط النفس، وهو ما يفوت على إسرائيل فرصتها التقليدية فى الصيد فى الماء العكر، على حين يهيئ لهذه القوى (على مدى ليس بالقريب حقيقة، لكنه ليس أيضا بالبعيد) الفرصة لالتقاط الأنفاس والتفكير فى إجراء لابد منه لكى تعود الأمور إلى نصابها.

❑

وفى هذا الصدد يمكن لنا أن نتصور النازية حين طغت واستبدت وأصبحت قاب قوسين من تحقيق انتصارات عسكرية جديدة، فإذا بالقوى الأخرى التى ظلت ضابطة

للأعصاب وللنفس (وكانت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها أبرز هذه القوى) تتدخل فى الوقت المناسب بقوات قوية و غير منهكة وتنهى بهذا التدخل الفعال أسطورة النازية.

ولا يستطيع أحد أن يستبعد تحالفا إسلاميا أو قوميا فى لحظة من اللحظات يكفل تأديب الصهيونية إلى الأبد حتى مع استبقاء بعض اليهود على أرض فلسطين فى ظل حكومات من الحكومات الإسلامية المتحالفة على نحو ما حدث فى أوروبا فى نهاية الحرب العالمية الثانية.

وينبغى لنا أن نتذكر فى هذا الصدد أنه بقدر ما تحجم القوى القادرة على الحسم عن الانضمام للمعارك والحروب حين تكون هذه الحروب بمثابة نزيف ومستنقع، فإنه بذات القدر نجد هذه القوى نفسها مندفعة إلى أى تحالف يبدو النصر حليفا له فى الأفق، بل تُتهم هذه القوى نفسها بالغباء الإستراتيجى إذا ما هى تكاسلت عن الانضمام لمثل هذا التحالف.

ولهذا فإنه لا يمكن لنا استبعاد فكرة تحالفات إسلامية ـ مسيحية منظمة لمواجهة التصرفات الصهيونية قبل أن تستفحل، ولا نستطيع فى هذا الصدد أن ننكر مدى التورط الذى وضع شارون فيه نفسه حين ألمح إلى أنه فى أطماعه لا يعترف بالحدود ولا السيادة، ولو أنه استمر فى تورطه ـ وهو أمر وارد ـ فإن أحدا لن يستطيع عندئذ أن يؤخر فرصة الانتباه إلى خطورة تفكيره على مستقبل الإنسانية.

ولو أن الدبلوماسية العربية كانت تملك من إمكانات التحرك وآلياته ما يمكنها من محاصرة شارون على الأرض الأمريكية لكانت الإدارة الأمريكية الحالية أكثر الإدارات نفضا ليدها من دفعه من ناحية، والدفاع عنه من ناحية أخرى.

❑

إن طموحات شارون الشريرة لا تقف عند حد، ويكفى للتدليل على هذا المعنى أن

نعود إلى مذكراته التى كتبها فى فترة استرخاء سياسى ابتعد فيها عن الحكم، ومع هذا فإنه عبر فيها عن عقيدة عدوانية ممعنة فى العدوانية لا تقتنع حتى بتوازن الرعب النووى، وإنما تطمح إلى ما هو أبعد من هذا.

ويمكن للقارئ أن يطالع فقرات من مذكرات شارون يقول فيها:

«تعيش إسرائيل، منذ إقامتها، فى محيط من البلدان المعادية لوجودها، وبسبب حالة العداء المستمرة كنت أعتبر دائما أن بعض أعمال جيراننا غير المقبولة لدى إسرائيل، يجب أن يُنظر إليها على أنها «خطوط حمر»، وحيازة الدول العربية للأسلحة النووية خطر من هذه الخطوط، ولم أتمكن يوما من فهم الإسرائيليين الذين يدعون إلى «توازن الرعب» فى الشرق الأوسط. يقول أنصار هذه المقولة ما يلى: إذا كانت إسرائيل والدول العربية تملك أسلحة نووية فلن يسمح أى من الفريقين لنفسه بالهجوم، وهكذا سيتمكنان من خفض قواتهما التقليدية وبالتالى موازنتهما العسكرية».

«أنا أرى أن مفهوم «توازن الرعب» النووى هو بالغ الخطورة، حتى على صعيد الدول العظمى، غير أن هذه الدول، كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا وبريطانيا العظمى، ترتكز على الأقل كلها، فى تقديراتها عتبات الخطر، على الحذر والمنطق، لكن على رغم الحذر الشديد والمنطق الذى لا غبار عليه فقد يطرأ حادث فجأة، وإذا كان الأمر يتعلق بالأسلحة النووية لا يمكن إلا أن تترتب عليه نتائج وخيمة، هذا صحيح، غير أن النادى النووى لا يخلو من الأعضاء الذين يأخذون القرارات بروح مسئولة جدا، لكننا الآن فى الشرق الأوسط، فى منطقة هى عرضة للتقلبات، نجد فيها قادة كصدام حسين وحافظ الأسد ومعمر القذافى، وهم رجال يفكرون بأسلوب مختلف تماما عن أسلوبنا، وأمام

هذا الواقع عـارضت دائمـا وبشـدة كل مَنْ دافع عن توازن نووى فى الشرق الأوسط، فمثل هذا الوضع ليس من شأنه، فى رأيى، إلا أن يحد من قدرة إسرائيل على الدفاع عن نفسها، أو حتى على مكافحة الأعمال الإرهابيـة الصـغيـرة. وفى كل رد مـحتـمل علينا أن نخشى أن يرتكب أعداؤنا خطأ فى التقدير يحمل فى طياته عواقب مأسـاوية. وفى مثل هذه الظروف ستكون إسرائيل، وهى مقيدة اليدين، هدفا لأعمال إرهابية مستمرة، وفى تعبير آخر لا أشك فى أننا لا نستطيع أن نسمح للبلدان العربية بحيازة الأسلحة النووية».



6

السياسية الإسرائيلية فى أزمة

- شارون : مجد زائف صنعته أحقاد عربية . عربية
- شارون ومستقبل إسرائيل
- شارون والمنهج الثالث
- الشارونية مقبرة النهاية للصهيونية
- اجتياح شارون لقطاع غزة لا يزال وارداً
- شارون وخيار القوة العسكرية



كان من نكد الطالع أن بعض العسكريين الإسرائيليين المعاصرين لم يكتسبوا قيمة إلا بفضل اختلاف العرب أو غفلتهم، أو تمكن العمالة من بعض أصحاب الأقلام العربية، ومن هؤلاء الساسة الإسرائيليين قادة مشهورون صُوروا أبطالا وقادة مهرة فإذا هم عند أول اختبار حقيقى يسقطون فى ١٩٧٣ إلى غير رجعة.

على أن الأكثر مدعاة للنكد هو أن بعض العسكريين الإسرائيليين صادفوا حظهم عندما أراد البعض منا فى العالم العربى التقليل من قيمة النصر الوحيد الذى أحرزناه فى حرب ١٩٧٣ المجيدة، ولم يسلك هؤلاء هذا السلوك من باب الحقد على الرئيس السادات فحسب، لكنهم للأسف الشديد سلكوه من باب الحقد على أمتهم التى انتصرت، ولم يكونوا يريدون لها أن تنتصر لأن مجدهم كان يقوم على دورين محددين يقومون بهما، دور الأراجيف المبشرة بالهزيمة المحققة، ودور القدرة على الوساطة والاتصال بالقوة العظمى من أجل الوصول إلى حل سياسى، فلما جاءت بشائر النصر العظيم وجدوا أنفسهم على وشك أن يفقدوا الدورين تماما، وتنتهى حياتهم

السياسية والمهنية إلى الظل، ولهذا كانت محاولتهم اليائسة لتصوير الثغرة على أنها انتصار إسرائيلى مقابل لانتصارنا العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣، وفى ظل استيلائهم التام على مقدرات الأمور فى قنوات الرأى، حظيت الثغرة فى بعض الصحف التى كانوا يتولون أمرها بحديث وتحليل ورسومات فاقت، للأسف الشديد، الحديث والتحليل والرسومات التى قدموها عن النصر العظيم والوحيد والمجيد نفسه.

ومن ثم فإنه على الجانب الآخر، وجد العدو من بيننا مَنْ يمجد له حركته السينمائية فى الثغرة، ولهذا رحب العدو بهذا النصر (المصطنع) الذى أهداه إليه أفراد منا للأسف، وبعد أن كانت القيادة الإسرائيلية تمضى فى اتجاه لوم شارون الذى حصر قوات إسرائيلية فى الثغرة بسبب سلوكه المشهور فى الاندفاع، وجدت هذه القيادة نفسها فى حالة من الحرج التى فرضت عليها الحفاظ على شارون الذى صوره بعض أعدائهم العرب بطلا ومنجزا وصاحب دور، وكانت هذه بالطبع خطيئة إستراتيجية كبيرة دفعت إسرائيل ثمنها فى بيروت ولبنان على مدى سبعة عشر عاما، ثم ها هى تدفع ثمنها اليوم فى قلبها ومن قلبها.

ومن قبل هذا وذاك كانت الثغرة على نحو ما عبرت وكررت وشرحت «فى كتابى: النصر الوحيد» بمثابة هدية من الله سبحانه وتعالى لمصر فى حرب أكتوبر دفعت الإسرائيليين إلى الإسراع إلى الجلوس إلى مائدة التفاوض، وهو ما لم يكن ليتحقق بنفس السرعة لو أننا وصلنا إلى المضايق أو ما بعدها بدون ثغرة.

❑

وظنى أن من المهم أن ندرك مدى الأثر النفسى الذى تركته هزيمة إسرائيل فى نفوس قادتها وسياسيها وأن من المهم أن ندرك مدى حزنهم الشديد مما حدث فى تلك الثغرة ذلك أن الصورة التى لا تزال تلح على العرب بأن الثغرة كانت إنجازا إسرائيليا كفيلة بتضليلنا عن حقيقة مهمة طال إخفاؤها عن شعوبنا بفعل فاعل.

لنقرأ هذا النص الذى يرويه موشى ديان نفسه فى مذكراته عن زيارته (وهو وزير للدفاع فى ١٩٧٣) لمنطقة الثغرة مع آرييل شارون.

يقول ديان:

«لم استطع إخفاء مشاعرى عند مشاهدتى لها، فقد كانت مئات من العربات العسكرية المهشمة والمحترقة متناثرة فى كل مكان، وبعضها مازال يتصاعد منه الدخان، كما كانت هناك دبابات إسرائيلية ودبابات مصرية لا يبعد بعضها عن بعض سوى بضع ياردات، وكانت هناك أيضا عربات نقل إمدادات مهجورة فاجأتها الغارات الجوية وقذائف المدفعية، وكانت بين الأسلحة والمعدات المحطمة بطاريات سام ٢ وسام٣، وكانت وسط كل بطارية منصة ثابتة لإطلاق الصواريخ وحولها عربات محملة بالصواريخ بعضها سليم لم يمس وبعضها مدمر. ومع اقترابنا من كل دبابة كان الأمل يراودنى فى ألا أجد علامة الجيش الإسرائيلى عليها، وانقبض قلبى فقد كان هناك كثير من الدبابات الإسرائيلية. ومع أن مناظر الحرب أو المعركة لم تكن غريبة بالنسبة لى، فإننى لم أشاهد على الإطلاق مثل ذلك المنظر لا على الطبيعة، ولا فى اللوحات، ولا فى أفظع الأفلام السينمائية الحربية. لقد كان أمامنا ميدان شاسع لمذبحة أليمة يمتد إلى بعد ما تستطيع العين الوصول إليه. كانت الدبابات والمركبات والعربات المدرعة والمدافع وعربات نقل الذخيرة المعطلة والمقلوبة والمحترقة دليلا مروعا على المعركة الرهيبة التى دارت هنا».

بل إن شارون نفسه فى مذكراته يعترف بمدى المعاناة التى عاناها هو وقواته فى الثغرة على الرغم من كل المزاعم التى حاول أن يصور بها نجاحا مصطنعاً حققه ليغطى به أو ليحاول أن يغطى به على أكثر من فشل ارتكبه، شأنه فى هذا شأن القادة الإسرائيليين جميعا، فى أثناء حرب أكتوبر المجيدة فى ١٩٧٣.

ونحن نطالع فى مذكرات شارون نفسه ما يؤكد لنا هذا المعنى الذى لا يزال بعضنا يحاول أن يحجبه عن شعبنا لا شيء إلا ليقلل من قيمة انتصار أكتوبر المجيد الذى أضاع على البعض جلد الشعب العربى بدعوى «لا صوت يعلو على صوت المعركة».

يقول شارون :

«وهذا هو تماما ما قلته فى مقابلة مع جريدة معاريف فى ٢٥ يناير ١٩٧٤، وأضفت: إن أولئك الذين أعطوا هذا الأمر لم يفهموا الوضع كما كان سائدا على الطبيعة، وإذا كانوا يريدون تخطى القرار التكتيكى لقائد الجبهة، أى قرارى، كان عليهم واجب المجيء إلى ميدان المعركة ليطلعوا على حالة قواتنا وحالة العدو والطوبوغرافيا ومعنويات الجنود، ليدرسوا كل عناصر المعركة. ولم أكن أقبل تدخل رؤسائى فى قرارات تكتيكية قبل أن يروا ما أرى، فلو فعلوا ذلك ثم رفضوا وجهة نظرى لكنت انسجمت مع قرارهم، لكن بما أنهم لم يأتوا إلى الميدان، فإننى لم أكن أستطيع قبول تدخلهم هذا. وإذن كان علىّ أن أرفض تنفيذ أمر كنت أعرف أنه خاطئ، وكان علىّ أن أقبل المثول أمام محكمة عسكرية بجرم العصيان».

وفى هذه المذكرات نفسها يقول شارون:

«لقد شاهدت هذه المرة الكثير من المذابح التى يفوق هولها كل ما شاهدته فى الحروب الأخرى، وفى هذه اللحظة على الأقل كان من الصعب علىّ أن أتخيل كيف يمكننا أن ننسى هذه المآسى».

❑

و للدلالة أيضا على وجهة نظرى فى هذا الموضوع والتى برهنت عليها بالتفصيل فى كتابى «النصر الوحيد» وما زلت متحمساً لها يكفينى أن أنقل عن وزير

المواصلات العمالى فى حكومة شارون وهو اللواء الطبيب «إفرايم سنيه» فى كتابه «إسرائيل بعد عام ٢٠٠٠» فقرة تتضمن ذكرياته عن الثغرة التى كان هو نفسه أحد المحاصرين فيها بسبب سياسات وتصرفات شارون الرعناء:

يقول سنيه:

«واجهتنا أيام كنا ننسحب خلالها عاجزين، بينما تطالعنا مشاهد مخجلة من التراجع والفزع.. وحين أنهينا الحرب فى جنوب الإسماعيلية قرب أشجار المانجو، واجهتنى ليال لم أستطع النوم خلالها، بسبب تفكيرى المستلب متسائلا: كيف يحدث كل هذا لنا؟!».

«علينا ألا نتذوق مرة أخرى طعم العار والهوان، فالشعب اليهودى ينبغى ألا يعجز عن الدفاع عن نفسه، ويشعر بالذلة، وعلى الجيش الإسرائيلى ألا يهزم أبدا».

❏

أما شارون السياسى الأرعن فيمثل النهج الفاجر الجبان الذى يغطى عجزه وجبنه بالقتل المتعمد، والتعذيب، والتهجير غير القانونى، والحرمان المتعمد من الحق فى محاكمة عادلة وعادية، والتخريب المتعمد الهائل للممتلكات والاستيلاء عليها.. وكل الإجراءات التى تنفذ بطريقة غير قانونية ومتعمدة.

وهو بممارساته الحمقاء ينسف جهودا جبارة بذلها أسلافه من أجل خداع العالم بأسره والحصول من هذا العالم على كل ما أراد الصهاينة، وهو يندفع فيما يظنه نجاحاً إلى حدود توظيف معارضيه لخدمة أهدافه، وهم - للأسف - لا يجدون الفرصة للنجاة من هذا الاندفاع غير المبرر لأنهم جميعا (بيريز ونيتنياهو وباراك وكل من هم فى الصورة فى إسرائيل الآن) أضعف من مواجهة الموقف الذى خلقه شارون.

من حق كل مراقب لتطورات القضيية الفلسطينية أن يصاب بالفزع من أن تتبنى الإدارة الأمريكية الحالية رؤيتها التى عبر عنها الرئيس بوش فى أحد خطاباته والتى تجعل حل الأزمة يتمثل فى «إنهاء الإرهاب الفلسطينى» حالا ، و قبل أن يعقب ذلك بفترة «تجميد» ومن ثم تفكيك المستوطنات اليهودية ، والبدء فى المحادثات لرسم حدود جديدة ، من أجل إنهاء الاحتلال والسماح بتأسيس دولة فلسطينية ، وإذا توقف الإرهاب الفلسطينى - هكذا يقول الرئيس الأمريكى - فسوف يشجع الإسرائيليون على «القبول بشكل جاد بالمبادرة التاريخية التى تقدمت بها الجامعة العربية وتقضى بمبادلة السلام والاعتراف الكامل بانسحاب إسرائيلى» ، لكن يجب على زعماء الفلسطينيين أولا أن يبرهنوا على أنهم «شركاء سياسيون حقيقيون» .

وفى الحقيقة فإن التجاوب الأمريكى مع الآمال الصهيونية يمثل نوعاً من أنواع السعادة بوجود مَنْ يتصدون بالنيابة عن الولايات المتحدة الأمريكية للقيام بأدوار غير إنسانية فى منطقة لا تزال تعانى من أطماع الاستعمار الجديد، وهذه نقطة جديرة

بالانتباه فى ظل سيادة الظن بصفاء نية الولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بجهودها الداعمة للسلام فى الشرق الأوسط.

وتتيح لنا الخبرة التى أدركناها - كمثقفين عاشوا التاريخ المعاصر وقرأوا أحداثه - أن نكتشف بسهولة حقيقتين مهمتين.

أولاهما: أن الولايات المتحدة لم تسع إلى السلام إلا حين كانت إسرائيل فى حاجة إليه.

وثانية هذه الحقائق: هى أن الولايات المتحدة ساعدت إسرائيل بأقصى ما يمكن فى أن تكون صياغات السلام متوافقة مع خدمة أهداف النظام الاستعمارى الجديد، من قبل أن تكون متوافقة فيه مع خدمة أهداف إسرائيل.

❏

للتأكيد على الحقيقة الأولى ينبغى لنا أن ننتبه إلى حقيقة موقف الولايات المتحدة الأمريكية من مبادرة السادات الأولى فى ١٩٧١، وكيف كثف هنرى كيسنجر كل جهود الولايات المتحدة الأمريكية من أجل خلق حالة اللاسلم واللاحرب، وكانت أبواق الولايات المتحدة تبشر [حتى فى مصر] بحتمية هذه السياسة ومبرراتها.. ومع هذا فقد كان كيسنجر نفسه أول المهرولين إلى مصر ليبدأ المفاوضات بعد أن تحقق لمصر نصر كبير لم ننتبه حتى الآن إلى إحدى أبرز سماته وهى الثغرة التى انحصر فيها الإسرائيليون وجعلتهم يلجأون إلى الاستغاثة كى يخرجوا منها (على حين كان هناك ولا يزال مَنْ يصورون هذه الثغرة وكأنها كانت إجهاضاً للانتصار المصرى الساحق).

يكفينى للدلالة على وجهة النظر التى مازلت متحمساً لها أن أدل القارئ على الفقرات التى نقلتها فى الفصل السابق عن «إفرايم سنيه» فى كتابه «إسرائيل بعد عام ٢٠٠٠» متضمنة ذكرياته عن الثغرة التى كان هو نفسه أحد المحاصرين فيها بسبب سياسات وتصرفات شارون الرعناء.

أما دليلى على الفكرة الثانية فهو قول صريح منسوب إلى المؤرخ الإسرائيلى شلومو بن عامى وقد صدر عنه قبل فترة وجيزة من اشتراكه فى حكومة إيهود باراك وفيها يقول بن عامى بكل صراحة:

«إن اتفاقات أوسلو تقوم على قواعد النظام الاستعمارى الجديد، ويعنى هذا أنها أسست على نوع من الحياة يتصف باعتماد أحد الفريقين على الآخر إلى الأبد».

فى إطار هذه الرؤية لا نستطيع أن نتغاضى عن الحقيقة المرة التى يمثلها النهج الشارونى فى الأداء الصهيونى، وهو النهج الذى وصل إلى أقصى درجات الإجرام والعنف والرعونة والجشع.

ولكى يزداد فهمنا لحقيقة الفكر الشارونى ينبغى لنا أن نرجع خطوتين إلى الوراء من الآن، وخطوة أخرى إلى الأمام من موقفه المؤذى لبلاده وشعبه بدخوله الثغرة من أجل إنقاذ رقبته من الاتهامات التى وجهت إليه فى بداية حرب ١٩٧٣.

❑

وهذه قصة أخرى تستحق القراءة:

فى ديسمبر ١٩٨١ كان مقررا أن يلقى شارون - الذى كان يشغل منصب وزير الدفاع فى حكومة مناحم بيجين - محاضرة عن «مشكلات إسرائيل الإستراتيجية فى الثمانينيات»، وذلك فى افتتاح ندوة «معهد الدراسات الإستراتيجية فى تل أبيب»، ولكنه لم يلق المحاضرة بسبب حضوره مناقشة الكنيست لقانون ضم الجولان.

وفى ١٨ ديسمبر من ذلك العام وتحت عنوان «الخطاب الذى لم يلق» قدمت صحيفة «معاريف» أهم محتويات هذا الخطاب الذى قال فيه شارون ما نصه:

«إن مصالح أمن إسرائيل فى الثمانينيات» تتأثر «بتطورات وأحداث تتجاوز منطقة المواجهة المباشرة، التى ركزت عليها إسرائيل انتباهها فى الماضى».

وأضـاف شـارون - الذى كـان فى ذلك الوقت بمثـابة خليـفـة غـيـر مـتـوقـع لقـادة عـسكريـين من أمـثـال ديان وويزمـان، لكنه مع هذا أصـبح وزير الدفـاع «الليكودى» - أضاف شارون يقول:

«إن اهتمامات إسرائيل الإستراتيجية، ينبغى أن تتسع إلى ما وراء الدائرة الأولى التقليدية لدول المواجهة المحيطة بها، وهذا الاتساع يجب أن يمتد ليشمل مجالين جغرافيين آخرين لهما أهمية أمنية، حسب تعبيره».

وقد حدد شارون هذين المجالين كما يلى:

- المجال الأول: يتعلق بما أسماه الدول العربية الخارجية، وقصد بذلك الدول الواقعة وراء دول المواجهة، والتى تضيف مقدرتها العسكرية المتزايدة «بعدا أكثر خطورة إلى الخطر المباشر الماثل أمام إسرائيل، سواء بواسطة إرسال قوات مقاتلة إلى منطقة المجابهة، أو بواسطة عمليات جوية وبحرية مباشرة تستطيع تنفيذها ضد خطوط المواصلات الجوية والبحرية لإسرائيل».
- المجال الثانى: يشمل تلك الدول الخارجية التى قد تؤثر مكانتها وتوجهاتها السياسة - الإستراتيجية بمقدار خطير على أمن إسرائيل القومى. وقال شاون:

«إنه يقصد بذلك: «ما وراء الدول العربية فى الشرق الأوسط على ساحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر».

وبناء عليه قدم شارون رؤيته فى قوله:

«ينبغى أن نوسع مجال الاهتمام الإستراتيجى والأمنى لإسرائيل بحيث يشمل فى الثمانينيات دولا مثل تركيا، وإيران، وباكستان، ومناطق مثل الخليج العربى وأفريقيا، وبشكل خاص دول أفريقيا الشمالية والوسطى».

❑

وتعليقاً على أفكار شارون وإستراتيجيته هذه، خرجت صحيفة «عمل همشمار» فى

٢١ ديسمبر ١٩٨١ بمقال عنوانه «مبدأ شارون: إمبراطورية إسرائيل من الصين والاتحاد السوفيتى حتى كينيا ومراكش». وقال الكاتب تسفى تيمور:

«إن شارون يقيم - استعدادا للثمانينيات - الإمبراطورية التى يحدها فى الشرق: الصين، وفى الشمال: الاتحاد السوفيتى، وفى الغرب: الجزائر ومراكش، وفى الجنوب كما يبدو كينيا أو أفريقيا الجنوبية».

وقال تيمور متهكما:

«لقد كان فى الإمكان أن يكون «مبدأ شارون» مضحكا أو مؤلما لو لم يكن مصدره وزير الدفاع الإسرائيلى والذى يستطيع استخدامه. فى الإمكان، طبعا، لن نتعامل مع هذا المبدأ فقط بمصطلحات «جنون» أو «جنون العظمة» أو «فقدان الواقعية»، لكن ينبغى أن نتذكر أنه مادام شارون يتولى منصب وزير الدفاع فقد تصبح إسرائيل متورطة فى سلسلة نزاعات عالمية أو محلية، لا شأن لها فيها مباشرة».

هذه كانت رؤية أحد الكتّاب الإسرائيليين أنفسهم لأفكار شارون جنون.. أو جنون عظمة.. أو فقدان الواقعية.

ويعلق الأستاذ عبد العال الباقورى فى كتابه «حدود التسوية وإستراتيجية إسرائيل فى القرن ٢١» - وهو من أهم الكتب العربية التى تناولت الفكر الصهيونى الجديد متمثلاً فى رؤية أحد أقطاب حزب العمل فى الوقت الحالى - على هذا المعنى المهم داعياً إلى الانتباه إلى أن شارون لم يعد دوره فى تبنى مثل هذه السياسات التوسعية، أو أبدية التوسعية، ويقارن الباقورى بين شارون ووزير المواصلات الحالى فى حكومته بقوله:

«إذا كان هذا شأن شارون «الليكودى المتطرف» وتفكيره فى إستراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات، فكيف ينظر إفرايم سنيه «المعتدل» و«العمالى»

للأمر نفسه بالنسبة لإسرائيل بعد سنة ٢٠٠٠؟ إن الجنرال وزير الصحة السابق يكاد ينطلق من الأرضية نفسها التى انطلق منها الجنرال وزير الدفاع ثم الخارجية السابق».

ويشير الباقورى إلى قول إفرايم سنيه نفسه:

« إن مدى إسرائيل الإستراتيجى، اتسع كثيراً بحيث تجاوز دائرة المواجهة مع جيرانها المعادين التقليديين: سوريا، ولبنان، والأردن، ومصر، وهذا المدى الإستراتيجى ينطبق على المنطقة نفسها، بحيث يصبح كل ما يجرى فيها وهو يهدد بالخطر أمن دولة إسرائيل. وهذا المدى يشمل كل دولة تمتلك القدرة على الاشتراك بالأعمال الهجومية على إسرائيل، وكل دولة تستطيع مساعدة دول المواجهة على امتلاك القدرة الصاروخية أو تحييدها عنها. ويؤكد سنيه أن الإسرائيليين لا يمكن أن يكونوا غير مبالين أمام قدرات كهذه «حتى لو كانت بعيدة عنا، لأن الصاروخ اليوم يمكن أن يحمل إلى داخل إسرائيل من أمكنة بعيدة».

ويضيف الأستاذ عبدالعال الباقورى موضحاً هذه الفكرة:

«ولا يترك الزعيم العمالى الأمر غامضا، بل يضع النقاط على الحروف ويتساءل: ما حدود المدى الإستراتيجى لإسرائيل؟ هل هى الصين أو الهند أو زيمبابوى؟ ثم يضع لحدود هذا المدى عاملين أساسيين هما:

«الأول: المدى الذى تصل إليه الصواريخ الموجودة فى أيدى الدول العربية والإسلامية».

«الثانى: يتعلق بالدول التى يدعى أن «عدوانيتها العملية ضد إسرائيل يمكن أن تسبب لنا الضرر الإستراتيجى».

ومن المهم أن نطلع القارىء على آراء إفرايم سنيه الذى عرف لفترة من الوقت بصفته وزير المواصلات العمالى فى حكومة شارون. وهو يتحدث بقدر من التفصيل عن العامل الثانى فيقول:

«إن المدى الإستراتيجى يتحدد هنا بقدرة دولة ما على أن تغلق ممرا مائيا دوليا أمام سفن إسرائيل، وبناء على هذا المعيار المحدد».

ويفسر سنيه الأمر بقوله:

«إن المدى الإستراتيجى الإسرائيلى يمتد من البحر الأسود فى الشمال حتى خليج عدن فى الجنوب، ومن مضايق جبل طارق فى الغرب حتى بحر قزوين فى الشرق.

وبعد أن يتحفظ القطب العمالى تحفظا هامشيا مشيرا إلى أن هذا التعريف لا يعنى أن عشرات الدول الموجودة فى داخل هذا المدى هى دول معادية عمليا لإسرائيل، يعود ليؤكد أنه ينبغى على إسرائيل أن تولى الاهتمام الدائم لما يحدث فى جميع تلك الدول، كما يجب عليها أن تفكر فى كيفية تحويلها إلى دول صديقة لها ومتعاونة.

ونعود إلى تقييم الأستاذ عبدالعال الباقورى لرؤية قطب حزب العمل، وهو يقول:

«وعن كيفية التعامل مع دول هذا «المدى الإستراتيجى» يضيف سنيه أنه يجب على إسرائيل أن تفكر تفكيراً إيجابيا فى هذا الشأن «أى ليس مواجهة الأخطار الممكنة فحسب، وإنما كيفية تحويل هذا المدى أيضا إلى منطقة آمنة وصديقة لدولة إسرائيل». كما يجب أن تستمر هذه السياسة الإسرائيلية تجاه دول مداها الإستراتيجى «حتى فى حالة السلام، بل على الرغم حتى من وجود سلام بين إسرائيل وجيرانها».

ويبرر سنيه ذلك بأن إسرائيل ستكون دوما دولة مختلفة عن محيطها، فهى دولة يهودية بتركيبتها السكانية والوجدانية، وبحقيقة أن اليهود ليس لديهم كشعب سيادة فى

أى مكان فى العالم سواها، ومحيط إسرائيل المباشر والبعيد سيظل دوما عربيا وإسلاميا، والشرق الأوسط لا يعرف التسامح مع الأقليات أو إمكانية حفاظه على وجودهم فيه.. وحتى فى حالة وجود السلام الحار والحقيقى الزاخر بالمخططات العملية التى تدعمه وتعمقه، فلسوف يبقى الاختلاف الإثنى الإسرائيلي موجودا، ومن مصلحتنا الحفاظ على هويتنا المميزة هذه وعدم السماح بمحوها، لذلك يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار دائما أن الاعتراض على وجود دولة يهودية فى هذا المحيط العربى - الإسلامى، حتى وإن خُفتَ أو استكان لسنين طويلة، فهو قابل فى يوم ما لأن يستيقظ وينهض».

شـارون والمنهج الثـالث

نستطيع أن نشارك مفكرين عربا من المهتمين بالقضية الفلسطينية رؤيتهم فيما يتعلق بما يطلق عليه الفروق المصطنعة بين رؤية كل من اليمين واليسار الإسرائيلى لآليات إدارة الصراع، فعلى حين أن اليسار الإسرائيلى مراوغ فإن اليمين مباشر. أما شارون فيمثل فى رأيى منهجا ثالثا هو النهج الفاجر الجبان الذى يغطى عجزه وجبنه بتصرفات من التى لا يمكن أن تصفها كلمات معدودات من قبيل «القتل المتعمد، والتعذيب، والتهجير غير القانونى، والحرمان المتعمد من الحق فى محاكمة عادلة وعادية، والتخريب المتعمد الهائل للممتلكات والاستيلاء عليها.. وكل الإجراءات التى تنفذ بطريقة غير قانونية ومتعمدة».

على هذا النحو ظل شارون وسيظل يتصرف، وعلى سبيل المثال فإنه على الرغم من وعيه الكامل بأن ما أنقذ إسرائيل من التآكل فى حرب ١٩٧٣ كان هو الجسر الأمريكى الجوى، إلا أنه لا يزال يحاول وسيظل يحاول أن يأخذ جزءا كبيراً من هذا المجد لنفسه حين عبر بقواته إلى الغرب، مع أن دراسة تفصيلات المعارك تنفى عنه

كل أثر وتحتكر للجسر الجوى الأمريكى هذا الأثر المنقذ لإسرائيل، ومع هذا نستطيع أن نلمح الحقيقة كاملة فى أكوام أكاذيب شارون الذى يقول:

«على الجبهة سمعنا موشيه ديان يعلن إلى الكنيست أن الذخيرة التى كنا نتسلمها ليلا كنا نستخدمها فى صباح اليوم التالى، وعرف كل مَنْ حضر ميدان المعركة استبعاد حصول مثل هذا الأمر . بعد الحرب تعمقت فى مسألة التموين والإدارة العسكرية، فتبين لى أننا على مدى أسبوعين ونصف أسبوع من القتال، أى خلال الفترة التى استغرقها النزاع، لم تستخدم قواتنا إلا ٢٥ ٪ من الأسلحة الخفيفة، و٥٥ ٪ من احتياطى قذائف المدافع، و٤٨ ٪ من مخزون قنابل المدفعية. لم ينقصنا إلا ذخيرة المدافع الميدانية من عيار ١٧ ملم، غير أننا لم نكن نملك سوى عدد ضئيل من قطع المدفعية هذه . ولربما ساور القلق قادتنا العسكريين لأن المخازن العسكرية كانت فعلا فارغة، وهى لم تفرغ إلا لأن المكنة اللوجستية كانت تسير على خير ما يرام! فمنذ بدء الهجوم راحت مواكب التموين المثقلة بالذخائر والمعدات المختلفة فى مستودعات مصلحة الإدارة العسكرية تؤم مراكز التجمع المهيأة ورحبات الذخائر والعتاد فى الخطوط الأمامية. بتعبير آخر كان محتوى المخازن والمستودعات موجودا حيث يجب أن يكون: على الجبهة».

❑

مع هذا النمط من التفكير الاسترجاعى الذى يحاول إدعاء الحكمة والبطولة بأثر رجعى لا يمكن لنا أن نظن أن شارون نسيج وحده فى كل هذه التصرفات، إنما هو فى الحقيقة قد تمادى إلى ما لم يصل إليه غيره من قبله، فهو يزايد على الجميع ولكن نهايته فى المقابل ستكون أفظع من نهايات الجميع، وفى هذا الصدد يكفينا أن نتذكر أن موشى ديان كان هو ذلك الصهيونى الذى بلور رؤية حزب العمل فى الأسلوب

الأمثل لقهر الفلسطينيين حين نصح مجلس الوزراء الإسرائيلي بأنه يجب على إسرائيل أن تبين للاجئين بوضوح أنه «ليس لدينا حل لمشكلتكم، فأنتم ستستمرون في العيش كالكلاب، أما مَنْ يريد منكم المغادرة فإننا سنسمح له بذلك، ثم سنرى ما الذي ستؤدي إليه هذه السياسة».

ولما اعترض عليه بعض زملائه أجاب بأنه إنما يصدر عن وجهة نظر بن جوريون الذي قال:« إن أي إنسان يحاول الكلام عن المسألة الصهيونية من زاوية نظر أخلاقية لا يعد صهيونيا».

وفي هذا الصدد أيضا يمكن الاستشهاد أيضا بقول حاييم وايزمان الذي كان يرى أن مصير «مئات الآلاف من الزنوج» في الوطن القومي اليهودي، ليس أمرا ذا بال.

❑

لست بعد هذا من أنصار بث اليأس في القلوب، ولكنني في الوقت نفسه من أنصار المعرفة التامة بخطط العدو والاختلافات البارزة فيها بين قادته، ومع أنني أؤمن بالواقع ولا أحب أن أتجاوزه، فإنني لا أستطيع إلا أن أتصور الصهيونية وهي تلقى نهايتها عن قريب بفضل سياسات شارون التي كشفت عن كل ما في الصهيونية من مصائب اجتهدت طويلا في إخفائها وطمسها بوجوه وقناعات من الزيف والخداع والتضليل بدءا بالبكاء على الوطن السليب، ثم على المذابح، ثم على المحرقة، وبدأت تبتز العالم والزعامات والأمم، لكنها اليوم بدأت تتبدى للعالم كله في أسوأ صورة، وهي بالمناسبة صورتها الحقيقية بلا رتوش.

إن شارون اليوم بممارساته يكرس ما يمكن تسميته بـ **ديماجوجية الجيش الصهيوني**، وهي أفظع الديماجوجيات تأثيراً، وأقدرها على دفع أصحابها إلى الانتحار التدريجي، ومن سوء حظ الصهيونية المعاصرة أن تفتقد في كيان الإدارة الأمريكية صهيونيا عاقلا وماكرا من مستوى هنري كيسنجر يتولى تحقيق مصلحتها عن طريق الخداع، بينما تجد يمينيين أمريكيين من قبيل الساسة المتاحين الآن يندفعون إلى ما يرونه الطريق الأسهل لمرضاة الصهيونية.

مع كل معاناتنا وعذابنا من الشارونية، فإننا نستطيع أن ندرك بحس تاريخى أن الشارونية التى هى منتهى الصهيونية ستكون بمثابة مقبرة النهاية للصهيونية، إلا إذا تخلت الصهيونية فجأة وبسرعة عن هذا النهج الشارونى، فإذا لم تتخل الصهيونية عن الشارونية فسنجد اليهود الأذكياء الشرفاء، وهم يتراجعون بكل ما يملكون عن تشجيعهم للوجود الإسرائيلى على نحو ما يدل عليه - على سبيل المثال - مقال نعوم تشومسكى الذى نشرت صحيفة «الحياة» ترجمة كاملة له فى عددها الصادر يوم الجمعة ١٩ أبريل ٢٠٠٢.

وعلى الرغم من كل الغيوم التى تسيطر على الموقف، وتدعم سياسات شارون وأسلوبه، فإن هناك قدرا لا بأس به من بذور الاختلاف الأمريكى - الإسرائيلى التى ظهرت بوضوح وأصبحت كافية مع الزمن لأن تهز من صورة شارون.. ليس فى أمريكا وحدها ولكن فى إسرائيل، فضلا عن صورته المهزوزة تماما أمام العالم كله،

ولعل هذا يدعونا إلى ضرورة استثمار هذه البذور الإيجابية بأسرع ما يمكن من أجل خلق أوضاع جديدة فى الأزمة الراهنة والممتدة:

(١) لأول مرة سجل التاريخ الرئاسى الأمريكى أن الرئيس الأمريكى طلب إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى الانسحاب مرة واثنتين وثلاثا ولم ينسحب الأخير، صحيح أننا نعتقد فى أن هذا كله تمثيل فى تمثيل، وأن هذا التكرار على فترات ليست بالقصيرة ولا بالعاجلة لم يكن إلا لإعطاء مهلة لشارون كى يمارس غطرسته وإجرامه، هذا صحيح، ولكن مَنْ قال إن هذا لا يخلق صورة أخرى يمكن لنا استغلالها إلى أقصى حد، صورة الإدارة الأمريكية التى لا تطاع، أو التى تتواطأ حتى لا تطاع.. وهى صورة يصعب القبول بتكرارها أو باتخاذها سابقة يقاس عليها، بل ربما أحرج هذا الموقف الأمريكيين فى كل تصريح تالٍ حين يجد المجتمع الدولى نفسه مضطرا إلى أن يطلب ضمانات للتنفيذ وبخاصة مع غطرسة أو عنجهية شارون.

(٢) يقودنا هذا إلى تأسيس موقف المطالبة بالربط الطبيعى بين المساعدات الأمريكية لإسرائيل وانصياع الأخيرة، فإذا كانت ظواهر الأمور تشى بأن إسرائيل لا تنصاع فما هى الميزة التى تستحق من أجلها أن تنال الدعم؟، بل إنه يمكن لنا على مستوى الخطاب السياسى تحوير هذه الرؤية لتنتقل من خانة الدولة (إسرائيل) إلى خانة الحكومة (شارون)، وهنا ينبغى لنا ضرورة توظيف المعرفة الأكاديمية بالاختلافات الإسرائيلية - الإسرائيلية من أجل خلق مواقف مفيدة للجانب العربى فى الصراع.

(٣) إدراك الفروق القانونية الدقيقة فيما يخص التصريحات الأمريكية، فليس كل تصريح أمريكى موالٍ لإسرائيل بمثابة صك لتأمين كل السياسات الإسرائيلية، وهنا ينبغى أن يتناول علماء القانون الدولى وفقهاؤه صياغة واداء نوع مطلوب من الخطاب العربى فى مواجهة الدعاية الإسرائيلية المنظمة والفجة.

وعلى سبيل المثال فنحن نستاء من إصرار أمريكا على اعتبار العمليات

الاستشهادية بمثابة نوع من الإرهاب، لكننا فى الوقت ذاته لا ينبغى لنا أن نغفل عن بقية القضية، وهنا ينبغى لنا أن ننبه الأمريكيين أنفسهم ومَنْ يرى رأيهم إلى أن اعتبار العمليات الانتحارية الموجهة ضد المدنيين الإسرائيليين إرهابا لا يعنى بالضرورة والتبعية إعطاء إسرائيل تأشيرة لممارسة الإرهاب ضد المدنيين الفلسطينيين على أيدى قوات الاحتلال بذريعة «الشراكة» فى الحرب على الإرهاب وباسمها.

(٤) التركيز على أهمية استمرار الشراكة العربية فى التحالف الدولى ضد الإرهاب، وربط هذه الشراكة باستبعاد شارون نفسه من هذا التحالف ومن الواضح أن أمريكا لو خيرت بمنطق السياسة الوقتية بين التحالف مع شارون أو التحالف مع العرب فى حملتها على الإرهاب لفضلت التحالف مع العرب، وذلك على الرغم من تصوير شارون نفسه ودولته ضحيتين من ضحايا الإرهاب.

ولا يخفى على أحد أن التحالف يقوم بين القادرين والمتمكنين وليس بين الضحايا ومَنْ يصورون أنفسهم بمثابة الضحايا، ولهذا كله يأتى التركيز على الدعوة المصرية المبكرة لمكافحة الإرهاب باعتبارها مستندا سابقا يضمن المصداقية والاعتمادية بدرجة عالية، وبخاصة أن مصر عانت من هذا الإرهاب على مستويات رفيعة فى داخل وخارج أرضها، ومن هنا ينبغى للعرب أن يخرجوا بمعاركهم مع شارون خارج الخانة التى يضعهم شارون فيها ويضعوه هو فى معارك أخرى تكفل استنزافه تماماً.

ومن العجيب أننا لم نستثمر حتى الآن العجز الإسرائيلى الأمنى عن حماية رجل صور للعالم على أنه رجل سلام كرابين، والقدرة الإسرائيلية المناقضة على حماية رجل يجاهر بالعنف مثل شارون، ومثل هذا التصوير الجيد يصب بالطبع فى مصلحة القضية الفلسطينية.

(٥) يظن شارون أن فى إمكانه مرة وراء أخرى إفشال الدور الأمريكى وذلك من خلال إفشاله مهمة مبعوث وراء آخر وهو مارسه بالفعل مع خمسة من كبار المسئولين الأمريكيين: زينى وتشينى وميتشيل وتينيت وباول، وننسى نحن من جهة أخرى أن

كل هؤلاء لا يعودون وهم سعداء بشارون ولا بفشلهم أو الحديث عن هذا الفشل، لكنهم يعودون بالطبع وهم محملون بخيبة الأمل من جراء عنجهية عميل جاهل أو حليف متنطع أو صديق متغطرس، ولابد لنا من التركيز على مثل هذه الجزئيات مهما بدا الإعلام الصهيونى قادرا على تصوير الأمور على غير حقيقتها.

(٦) على الرغم من كل الانحياز الأمريكى السافر إلا أن بعض التصريحات والتعبيرات تتضمن بارقات أمل كبيرة فيما يتعلق بتطور صياغة الرؤية الأمريكية، مما يدل على وصول الفهم الأمريكى مع الزمن إلى درجات أفضل مما كان عليه سابقا، وقد ذكرت فى فصل سابق مثلاً على ذلك وهو أن أقصى ما وصلت إليه إدارة الرئيس كلينتون فى شأن المستوطنات كان وصفها بأنها عثرة فى طريق السلام، أما كولين باول الذى لا نكف عن نقده فقد وصل فى وصف المستوطنات إلى القول بأنها ذات أثر مدمر.

(٧) عندما بدأت الانتفاضة كانت دعوة العرب إلى إرسال قوات دولية تمثل صرخة فى البرية، ومع الزمن وصل الأمر إلى أن المجتمع الدولى بات معتقدا فى أهمية مثل هذه الخطوة، بل إن كوفى عنان الأمين العام للأمم المتحدة اقترح وجود قوة دولية متعددة الجنسية تقوم بمهمة منع التجاوزات، إسرائيلية كانت أم فلسطينية، وتبدو أمريكا سائرة ولو ببطء فى طريق الاقتناع بهذه الفكرة وتنفيذها.

(٨) الأبلغ من هذا كله أن العالم اجتمع على مناقضة فكر شارون بوضوح حينما دعا رئيس الوزراء الإسرائيلى إلى تدمير البنية الأساسية للإرهاب (مستندا فى دعوته إلى عمله لفترة من الزمن وزيرا لهذا الشأن وكأنه أصبح خبيرا)، على حين ناهض العالم فى لقاء مدريد الرباعى فكرته هذه بوضوح وإيجابية، وهو ما تمثل فى الدعوة إلى تقديم المعونات الكافية أو السخية لإعادة البنية الأساسية للسلطة الفلسطينية، وهو ما يشكل فى النهاية تحديا واضحا لمفاهيم شارون يخرج بممارساته التى هى منتهى الصهيونية لتكون بمثابة نهاية لها.

اجتياح شارون لقطاع غزة لا يزال وارداً

تمثل فكرة الاجتياح العسكرى لغزة صورة من صور الهوس الشارونى الذى لم يكف عن التفكير فى الدفع بمصر إلى اشتباكات مع إسرائيل، وعلى الرغم من القدر اللامتناهى من ضبط النفس الذى تمسكت به الحكومة المصرية بقيادة الرئيس حسنى مبارك فإن شارون لايزال يؤمل فى أن ينجح فى استفزاز جاره الكبير من أجل خلق حالة من أحوال التوتر تكفل له تجديد صعود أسهمه فى بورصة السياسة الإسرائيلية، ذلك أن سلوك شارون أصبح يقتضى اللجوء إلى تكرار سكب البنزين على النار المشتعلة كلما وضعت الاشتباكات الحربية أوزارها، وهو كسياسى انتهازى أعجز ما يكون إذا ما توقف إطلاق النار، ويخطئ الذين يتصورون أهداف شارون محصورة فى السيطرة على المناخ الأمنى المحيط بإسرائيل.

إن شارون رجل أهوج يسعى بكل ما يمكنه من سبيل إلى فتح جبهات جديدة مع يقينه من أنه لن يحقق انتصارا فى أى منها، لكنه يهوى ويعشق فتح الجبهات لأن هذا هو السبيل الوحيد المتاح أمامه لإثبات ذاته، وهو لا يفكر فيما بعد هذه الخطوة ليس

لقصور منه عن توظيف التفكير من أجل السياسة، لكن لأن تفكيره قد قاده إلى أن يستثمر هذا الجانب الذى وجد نفسه متفرداً فيه ومتفوقا على أقرانه.

يبدو شارون - فى بعض الأحيان - وكأنه السياسى الإسرائيلى الوحيد الواضح، فهو لا يخفى سفالاته ولا نذالاته ولا عداءاته، كما أنه لا يتورع عن كل حديث يتأباه كل عاقل من ممارسى السياسة، ولهذا السبب فإن شارون لا يكف عن التفكير فى فتح الجبهات على نفسه، ولا يعنيه النجاح الحقيقى لأنه غير قادر عليه، وإنما هو يكتفى ببعض التصفيق والحماسة والانبهار الذى يصادفه من بعض قصار النظر من بنى قومه أو من أعدائه على حد سواء.

❑

ويأتى تفكير شارون فى اجتياح غزة فى محاولة يائسة للاستفزاز، يستفز أهل غزة والعرب ومصر أيضا، لكنه أصبح بحكم التجربة يعرف أن السيطرة على الأمور لا تتم على نحو ما يريد بالقدر نفسه من التمكن، فكثير من معطيات الموقف تخرج عن حساباته بما فى هذا الآفاق اللانهائية للعمليات الاستشهادية التى لن تتوقف مهما بذل شارون من قوته وغطرسته وترسانته وإعلامه السخيف، وبما فى هذا أيضا القدر الهائل من قدرة الفلسطينيين المعاصرين على التأقلم مع الظروف السياسية الدولية، وبما فى هذا كذلك من سطوة العقل والقدرة الممكنة (وغير المتحققة حتى الآن) على توظيف الإعلام والدبلوماسية لصالح الفلسطينيين.

إن اجتياح الكيان الفلسطينى القائم فى غزة أمر سهل، وليس من الصعب على شارون النجاح فيه على مدى ساعات أو أيام، لكن ما جدوى مثل هذا الاجتياح؟ وإلى أى مدى يمكن التورط فيه؟ هل يتقبل جنود جيش الدفاع الإسرائيلى أن يزج بهم فى وسط مدنيين بأعداد كبيرة على نحو غير آمن بالقدر الذى كان ممكناً فى الضفة الغربية؟ وهل أصبح من السهل على قيادات الجيش الإسرائيلى أن يقبلوا بالتورط فى مثل هذه الجرائم الصعبة التى لا عائد حقيقياً من ورائها؟

شارون إذاً فى حاجة إلى مبرر قوى يقدمه العرب له كى يندفع بدولته وترسانته والنظام الأمريكى التابع له إلى اجتياح قطاع غزة، ومع أن التوقعات تشير إلى أن العرب أصبحوا أذكى من أن يلبوا لشارون طلباته الرعناء وأحلامه الشريرة، إلا أن بعض الشك لا يزال قائما حول مدى الاستجابة لدعاوى الحرب حين تتناول المقدسات على نحو ما يتناولها شارون، ومع هذا فإن كثيرين من العرب لا يزالون يتمثلون الحكمة القديمة التى صاغها جد الرسول عبدالمطلب حين قال:

«أما الإبل فهى لى، وأما البيت فله رب يحميه!!».

فى كثير من اللحظات يبدو أن خيار القوة العسكرية هو اللغة الوحيدة التى يمكن أن تؤثر على أعصاب وعقلية شارون وعلى فهمه للأمور وحكمه عليها، ومع أن كثيرين منا يظنون أن وقت امتلاك العرب لعناصر القوة العسكرية قد فات أوانه، فإن حقائق التاريخ لا تقول بهذا على الإطلاق، ولابد لكل صاحب حق أن يجد من المخارج الذكية ما يمكنه من الخروج من دوامة الصراع غير المتكافئ إلى وضع المنتصر الذى يستطيع، من خلاله، أن يتفاوض وأن يملى شروطه أو بعضها فى ذكاء، وليست تجربة حرب أكتوبر ١٩٧٣ ببعيدة حين تمكنت قواتنا من فرض واقع جديد.

وعلى الرغم من أن التفكير فى المخارج العسكرية ليس من مهام أصحاب الأقلام وليس فى مقدورهم، إلا أن فى وسع هؤلاء أن يتنازلوا بعض الشىء عن توجهاتهم الأيديولوجية ليبذلوا الجهد فى تذكير شارون بالهزيمة التى حاقت به وبجيش الدفاع الإسرائيلى وبدولته فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وليس أوقع فى تحقيق هذا التأثير النفسى المذهل من أن نذكر شارون بما رواه هو نفسه عن كابوس هذه الحرب حيث يقول:

«وفى غمرة هذه الرتابة اليومية كنت أسترجع الأحداث وأسترسل فى طرح أسئلة وأسئلة على نفسى: ترى كيف حلت بنا تلك المأساة؟ كيف سمحنا بحدوث ما حدث؟.

....

«واستنتجت أننا بتنا لا نعرف تماما إلى أين نحن متجهون، وأن أهدافنا لم تعد واضحة تمام الوضوح، ولعل سبب المأساة التى نعيشها يكمن هنا، ألفان وستمائة قتيل، يالها من فاجعة ابتلى بها شعب بلغ عدده عام ١٩٤٨ ستمائة ألف يهودى، إنما الأكثر مأساوية هو أن يقع ألفان وستمائة قتيل فى حين فقدنا فى كل مرجع وأحبطت طموحاتنا، لابد من طرح بعض الأسئلة الجوهرية الآن وقد تمكنا أخيرا من تنفس الصعداء لأننا استطعنا، فى نهاية المطاف قهر العدو: ما مستقبلنا؟ ما مثلنا العليا وحوافزنا؟ ما هدفنا القومى؟».

❑

وعلى الرغم من أن الإسرائيليين والصهاينة ظلوا على الدوام منتبهين إلى خطورة أداء بعضهم من أمثال شارون وبصفة خاصة شارون نفسه، وقد حرصوا على الدوام على عدم تمكينه من موقع متقدم، إلاأن حتمية التاريخ الطبيعى أوقعتهم فى شر أعمالهم ووصل شارون فى النهاية إلى رئاسة الوزارة ليدمر جهود الخداع والنفاق والتظاهر التى نجح أسلافه فى بنائها وتركيبها فوق بعضها البعض طوال نصف قرن، ويخطئ الذين يصورون شارون رجلا ذا موقف أو ذا مبدأ، إنما هو فى حقيقة الأمر انتهازى من طراز بيريز، كل الفرق بين الرجلين أن هذا انتهازى ناعم يتغلب ذكاؤه على غبائه، أما شارون فانتهازى خشن يتغلب غباؤه على ذكائه، وعلى الذين يعجبون من عمل بيريز تحت رئاسة باراك ورابين وشارون وبن جوريون وديان ومائير أن يتذكروا أن شارون هو الآخر عمل تحت رئاسات عديدة لا يزال يهاجمها حتى يومنا

هذا، لكنه لم يترك مواقع الصدارة أو الحضور فى الصورة إلا مضطرا.

ومن العجيب أن الفلسطينيين قد نجحوا أن يثبتوا بكل وضوح مدى قدرتهم على قبول وتنفيذ أفكار من قبيل تجديد الدماء وإعادة الهيكلة ومراجعة التنظيمات القائمة وتعديل السياسات الحاكمة، وهكذا بان واضحا للجميع مدى قدرة السلطة الفلسطينية على التعافى حتى وهى تواجه هذا الهجوم البكتيرى والجرثومى القاسى، أما شارون فى الناحية الأخرى فإنه لا يزال عاجزاً عن أن يكرس زعامته على أى نحو، ودعنا من الانبهار بنسبة القبول التى يحظى بها فى استطلاعات الرأى، فهذا هو أقل المطلوب من شعب يعانى نتيجة قيادة متهورة ولا يجوز لهذا الشعب - الذى يتمتع بقدر معقول من الوعى الإستراتيجى - لا يجوز له أن يتخلى عن زعامته على نحو أو آخر إلا إذا انتهت المعركة، ولهذا فإن شارون يؤجج المعركة باستمرار لأنه يعرف أنه قابل للسقوط فور انتهاء المعركة أو حتى هدوئها.

أعمال موسوعية

- القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] ـ ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء) ـ ١٩٨٩ ـ ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث ـ ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق ـ ١٩٩٣
- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة ـ ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) ـ ١٩٩٥، ١٩٩٧، ٢٠٠١
- المحافظون (طبعتان) ـ ١٩٩٥
- البنيان الوزارى فى مصر [١٨٧٨ ـ ١٩٩٦] (طبعتان) ـ ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠] ـ ٢٠٠١
- قادة الشرطة فى السياسة المصرية [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٢] ـ ٢٠٠٣

فى التراجم

- الدكتور محمد كامل حسين (الحائز على جائزة مجمع اللغة العربية) ١٩٧٨
- مشرّفة بين الذرة والذروة (الحائز على جائزة الدولة التشجيعية)(طبعتان) ١٩٨٠
- الدكتور أحمد زكى ـ ١٩٨٤
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل ـ ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض ـ ١٩٨٤
- الدكتور على باشا إبراهيم ـ ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمى باشا ـ ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا ـ ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية ـ ١٩٨٨
- اسماعيل صدقى باشا ـ ١٩٩٨
- سيد مرعى ـ ١٩٩٩
- يرحمهم الله ـ ١٩٨٤
- مصريون معاصرون ـ ١٩٩٩

دراسات نقدية لكتب المذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين ـ ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة ـ ١٩٩٤
- مذكرات المرأة المصرية ـ ١٩٩٥

- • نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار(طبعتان) ـ ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء ـ ١٩٩٩
- الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث ـ ١٩٩٩
- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية ـ ١٩٩٩
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣ ـ ٢٠٠٠
- فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ – ١٩٧٢) ـ ٢٠٠٠
- على مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ – ١٩٥٢) ـ ٢٠٠١
- فى خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين ـ ٢٠٠١
- تكوين العقل العربى : مذكرات المفكرين والتربويين ـ ٢٠٠٣

❑ دراسات سياسية

- الفلسطينيون ينتصرون آخيراً ـ ٢٠٠٣
- مستقبل الجامعة المصرية ـ ٢٠٠٠
- القاهرة تبحث عن مستقبلها ـ ٢٠٠٠
- مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) ـ ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج فى مصر ـ ١٩٨٧
- آراء حرة فى التربية والتعليم ـ ٢٠٠١
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار ـ ٢٠٠١

❑ دراسات

- كلمات القرآن التى لانستعملها (طبعتان) ـ ١٩٨٤
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى(طبعتان) ـ ١٩٩٠
- من بين سطور حياتنا الأدبية ـ ١٩٨٤

❑ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] ـ ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة فى عواطف الأنثى] ـ ١٩٩٩

❑ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم(طبعتان) ـ ١٩٨٩
- شمس الأصيل فى أمريكا ـ ١٩٩٤

❑ فى طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية ـ ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية غير الصمامية ـ ٢٠٠١

المحتويات

رقم الإيـــداع	١٧٣٣
الترقيم الـدولى	977-5684-65-8-ISBN